منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1693)السنة السابعة -السبت (9) كانون الثاني 2010

2
اسمهان اذا حكت

10
في ذكرى اسمهان

14
طريق الموت

هل الرجل يعرف المهمة التي اسافر من اجلها؟! وهل هو يتبعني خصيصا؟ وهل هو جاسوس؟ ولحساب من يعمل؟
كان في امكاني ان احتفظ لنفسي بعشرات الالوف من الجنيهات، فقد كنت انا الوساطة الوحيدة في ايصال هذه المبالغ الى امراء وزعماء البادية
طلب مني باص ان اؤكد لزعماء الدروز ان الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي واعوان المحور مع انني استعنت بالكتمان والحذر الا ان خبر وجودي في الجبل وخبر (نشاطي) السياسي ومقابلاتي لبعض امراء وزعماء البادية وصل الى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور

إذا حكـــت!!

أسـمـهـان

محمد التابعي

مجلة اخر ساعة ١٩٤٥

بدأت اسمهان او الاميرة آمال الاطرش تروي قصتها منذ غادرت مصر في يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ فقالت:

لم يكن القطار قد ابتعد كثيرا عن القاهرة حتى خيل لي ان حوادث الايام الثلاثة الماضية كانت حلما.. وقد افقت منه الان فقط!.. وسألت نفسي هل انا جننت؟.. والا فكيف قبلت هذه المهمة؟! وكيف رضيت او اورط نفسي في عمل لا خبرة لي به؟.

ولاول مرة مذ قابلت مستر سمارت ادركت خطورة العمل الذي انا قادمة عليه وجسامة الخطر الذي قد اقع فيه.. بل وتمنيت لو استطعت ان اعود الى القاهرة واعدل عن هذه الرحلة ولكن كيف! هذا مستحيل الان! واردت ان اهرب من نفسي من افكاري السوداء فانتقلت الى عربة الاكل.. وجلست وحدي الى مائدة ولكني لم ابقَ وحيدة طويلا.

فقد اقبل رجل واستأذن هل اسمح له بالجلوس في المقعد الخالي امامي وسمحت له طبعا، وقدم نفسه الي على انه صحفي امريكي.. وان اسمه (ف) (ذكرت لي آمال اسمه ولكني اكتفي بذكر اول حرف فقط لاسباب سوف يدركها القراء فيما بعد).

قالت آمال:

وبدأ مستر (ف) يحدثني عن الحرب ومجراها وتطوراتها، وعن الشرق الاوسط، وانه يسافر الى لبنان لانه يتوقع قريبا وقوع احداث هامة، ثم سألني فجأة: (ألست من رأيي)؟

ووجدت نفسي اقول نعم! ولكني في نفس اللحظة تنبهت! وتذكرت نصائح مستر سمارت ونصائحك، واحسست ولا ادري كيف، ولعلها اعصابي المرهفة ان جلوس الرجل معي الى مائدة واحدة لم يكن مصادفة!.. بل كان امرا مقصودا..! وان حديثه كان يرمي لغرض.. وهو ان يستدرجني في الحديث.

دارت هذه الخواطر في رأسي ثانية او ثانيتين! هذا والرجل يتحدث ويسألني ولكني وقد تنبهت اعتذرت بالجهل وعدم احاطتي بتفاصيل سير الحرب من عدم الاجابة، و(بأبتسامة) ولم اكن كاذبة في اعتذاري فانت تعرف خيرا من سواك انني لا اقرأ الصحف وانني عمري ما اهتممت بتتبع سير الحرب!

ومضت تقول:

وانتهينا من تناول طعام العشاء ووصلنا الى القنطرة.

وكان في رأسي سؤال اخافني وهو هل الرجل يعرف المهمة التي اسافر من اجلها؟! وهل هو يتبعني خصيصا؟ وهل هو جاسوس؟ ولحساب من يعمل؟ لحساب المحور.. ام ترى الانكليز هم الذين ارسلوه ورائي ليراقبني؟ فقد كنت قرأت في بعض الروايات ان هناك جواسيس يتجسسون على جواسيس بينما الكل يعملون لهدف واحد ويخدمون مصلحة واحدة!

ولكني اطمأننت قليلا عندما رأيت ان مستر (ف) لم يحاول ان يلازمني في محطة القنطرة او يجلس معي في قطار فلسطين.

ولكني لما نزلت في الصباح في محطة اللد وجدته واقفا على الرصيف وكأنما كان ينتظرني.. وتقدم مني وحياني وتمنى لي سفرا سعيدا ثم قال انه سيواصل سفره بالقطار الى حيفا..وفعلا عاد وركب القطار..

قالت آمال:

هذا الصحفي الامريكي مستر (ف) كان من وكلاء المحور كما عرفت فيما بعد!.. هل تذكر انني ارسلت اليك مرة برقية عن سفري الى انقرة؟.

قلت: نعم وكنت انتظر حتى تنتهي من حكايتك واسألك عن السبب ولكنك لم تسافري؟ قالت: كلا، لم اسافر، او لم امكن من السفر.. ولمستر (ف) علاقة بكل هذا.. هل احكي لك القصة الان او اتركها الى ان يجيء دورها؟.

قلت: كما تشائين.

قالت: اذن اتركها الى ان يجيء دورها..

واستأنفت الحديث فقالت:

كومودور باص يعطيها تعليماتها واول الف جنيه!

وركبت من اللد سيارة الى القدس، ونزلت في فندق الملك داود ولم تمض على وصولي ساعة حتى زارني رجل انكليزي كان يلبس سترة سلاح الطيران البريطاني واسم الرجل (باص) وهو برتبة (كومودور) ورحب بي ودعاني لتناول الشاي معه في نفس اليوم.

وحول مائدة الشاي حدثني طويلا عن (عملي) واكد على ضرورة الحذر الشديد في كل خطوة اخطوها ونصحني ان اسيئ الظن بكل واحد..

وهنا سألتها: وهل قلت له شيئا عن الصحفي الامريكي؟

قالت: كلا خطر لي اولا ان افعل ولكنني عدلت.

سألتها، لماذا؟

قالت: لم اكن اعرف ساعتئذ انه يعمل لحساب المحور، وكان يحتمل ان يكون جاسوسا لهم.. للانكليز! على كل حال لم اقل شيئا عنه لكومودور باص..

واستأنفت حديثها:

وطلب مني باص ان استريح اليوم واستعد للسفر غدا الى عمان، وهناك سوف يلقاني من يسهل لي دخولي سوريا خلسة من حدود شرق الاردن وكان من المهم جدا كما فهمت من باص ان اصل الى جبل الدروز واجتمع بالامير حسن وزعماء الجبل قبل ان يعرف الفرنسيون بدخولي سوريا..

وكان باص يعرف ان للمحور جواسيس وعيونا في مصر، وكان من المحتمل او على الاقل من الممكن ان يكونوا عرفوا السبب في سفري وارسلوا الى سلطات المحور في لبنان وسوريا ينبهونها الى الغرض من زيارتي لجبل الدروز.

وطلب مني باص ان اؤكد لزعماء الدروز ان الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي واعوان المحور، وان جيشهم هذا انما يدخل سوريا ولبنان لتحريرهما من كل سلطة اجنبية وان اؤكد لهم كذلك ان النصر النهائي في هذه الحرب للحلفاء!

الى اخره.. الى آخره..

وانا اختصر هنا كثيرا من كلام آمال الاطرش تفاديا من تكرار كلام سبق للقراء ان عرفوه وسمعوه اثناء الحرب عن قوة الحلفاء ولماذا سيكون النصر لهم في النهاية، وعن اغراضهم من هذه الحرب.. الى آخره..

قالت آمال:

وقبل ان يتركني باص في المساء دس في يدي مظروفا وقال ان فيه الف جنيه لمصاريفي انا الشخصية.. وان الذي سوف يلقاني في عمان سوف يقضي الي ببقية التفاصيل..

تدخل سوريا خلسة!

وفي اليوم التالي سافرت الى عمان فوصلت اليها بعد الظهر، وانقضى اليوم ولم يتقدم الي احد..

ومضى صباح اليوم التالي ولم يتصل بي احد..

وبعد الظهر دعيت للتليفون وكلمني المجهول بلغة فرنسية ركيكة وفهمت منه انني يجب ان اكون مستعدة بحقائبي بعد نصف ساعة. وفي الموعد المحدد كنت جالسة في ردهة الفندق وحقائبي القليلة حولي واقبل خادم يقول ان سيارة تنتظرني امام الفندق ومشيت الى السيارة..

ووضع الخادم حقائبي فيها.. واخذت مقعدي الى جانب السائق ولم يكن في السيارة احد سواه.. وكان السائق ضابطا انجليزيا شابا، ومن صوته عرفت انه هو الذي حدثني بالتليفون وانطلقت بنا السيارة الى طريق الشام.. واثناء الطريق راح الضابط الشاب يذكر لي اسماء زعماء الدروز ويسألني بعد كل اسم هل اعرف صاحبه؟ وطبعا كنت اعرفهم جميعا فهم اقاربي وابناء عشيرتي.. ثم اخذ يسأل عن حالة كل منهم المالية والاجتماعية..

وهل هو رجل طموع او فنع؟ وهل هو ممن يمكن الركون اليهم والى كلمتهم!

وانتقل الضابط بعدها الى امراء وزعماء البادية ورؤساء القبائل الضاربة في صحراء سوريا ولكن معرفتي بهؤلاء كانت قليلة جدا فلم اكن اعرف منهم سوى اميرين او ثلاثة اما هو الضابط فكان يعرف اسماءهم جميعا وكان ملما بكل شيء عن كل واحد منهم..

ودام حديثنا في هذا الموضوع اكثر من ساعتين استطعنا ان (نغربل) هؤلاء الامراء والزعماء وان نختار منهم تسعة وهم الاكبر مقاما والاوسع نفوذا في الجبل والبادية وكان على رأسهم طبعا زوجي حسن الاطرش..

واخيرا بدأ الضابط يذكر اسماءهم واحدا بعد واحد.. وهو يسألني : مارأيك؟ هل تظنين انه يقنع بخمسمائة جنيه في الشهر؟ وكنت اقول : كلا! مستحيل! على الاقل الف جنيه..

هذا بينما كنت اعلم ان فلانا هذا يفرح جدا بخمسمائة جنيه.. بل يرضى بمائتين! ولكن لم لا اجعل هؤلاء الزعماء العرب ينتفعون بالاموال البريطانية التي كانت تنفق بالملايين! ويتناول الضابط زعيما آخر او رئيس قبيلة ويقول: وهل تكفيه الف جنيه؟

واقول انا: كلا هذا رجل قوي وغني، والف جنيه لا تملأ عينيه على الاقل الفان وهكذا..

انا حمارة كبيرة

وتوقفت اسمهان في روايتها وضحكت وهي تقول:

كم كنت حمارة كبيرة!

وضحكت انا وقلت: الرجوع الى الحق فضيلة! ولكن ما سر هذا الاعتراف؟

قالت: كان في امكاني ان احتفظ لنفسي بعشرات الالوف من الجنيهات، فقد كنت انا الوساطة الوحيدة في ايصال هذه المبالغ الى امراء وزعماء البادية، وكان الضابط الانكليزي المذكور يزورني كل شهر مرة في فندق (اوريان) اي الشرق في دمشق ويقول: لقد احضرت لك سجايرك اللاكي سترايك..

ويناولني (خرطوشتين) سجائر ملفوفتين بالورق، ولكن لم تكن هناك شجائر بل رزم من اوراق البنكنوت!

وكان الامراء والزعماء يترددون على الفندق واقابل كل واحد منهم على انفراد واناوله المبلغ المخصص له، وكما قلت لك فان معظمهم كان يقنع بل ويفرح بنصف ما كنت اعطيه

اياه، ولو انني كنت فعلت ذلك واحتفظ لنفسي بالفرق.. وهزت كتفيها وقالت: ولكنني كنت حمارة كبيرة!.
ثم كانما تذكرت امرا لانها ضحكت وقالت: عملتها بس مع زوجي حسن الاطرش.. قلت: زوجك؟!
قالت: نعم.. في احدى المرات كان علي ان اعطيه نصيبه وهو الفان من الجنيهات ولكنني لم افعل، وتركت دمشق وسافرت الى بيروت، والامير حسن لايزال يعتبر هذا المبلغ دينا عليّ حتى الان!
تقابل زوجها حسن الاطرش
وعادت اسممهان الى روايتها واستأنفت الحديث.. وانا اغفل بعض التفاصيل التي لاضرورة او لا اهمية لها.
قالت: واخيرا وصلت الى الجبل (تقصد جبل الدروز) وكنت متهيبة جدا من مقابلة العائلة وخصوصا الامير حسن بسبب ما نشر في بعض المجلات المصرية عن زواجي ببدرخان ونحن الطرشان نعده عارا ان تتزوج الفتاة من رجل غريب خصوصا اذا كان يقل مقاما عنها (كذا)! والمجلات المصرية مقروءة في سوريا وفي الجبل، وفعلا سألوني عن حكاية زواجي هذه فكذبتها وقلت انها كذبة مختلقة من اكاذيب مجلات مصر.
وعلى العموم استقبلني كبار الاسرة استقبالا طيبا، وقد تاثرت حقيقة من حسن استقبال الامير حسن وقد احسست في الحال انه لايزال يحبني،، ولعل هذا الحب هو الذي سهل علي مهمتي لانني لم اجد صعوبة في اقناعه بصواب الانضمام الى الحلفاء والتخلي عن تأييد حكومة فيشي.
ولكنه طلب مني ان اعود زوجة له. وابدى استعداده لان يطلق في الحال زوجته التي كان تزوجها بعد طلاقي منه.. ولم يقلها صراحة ولكني فهمت انه يجعل عودتي اليه شرطا لقبوله ماجئت من اجله، اي شرطا لنجاحي في مهمتي،،، قالت آمال الاطرش ولعلها ارادت ان توجز وتمر سريعا بهذا الفصل من روايتها حتى لا اناقش في تناقض برقياتها التي ارسلتها اليّ والتي كانت ارسلتها الى اسرتها في القاهرة.
قالت: ولا اطيل عليك، وارسل حسن ودعا زعماء الطرشان للاجتماع بي وتولي عني شرح مهمتي.. واقناعهم ثم بعث بالرسل ودعا بعض زعماء قبائل البادية.. وفي الوقت نفسه بادر الى طلاق زوجته لكي يثبت لي انه جاد في طلب عودتي زوجه له!
ومع انني استعنت بالكتمان والحذر الا ان خبر وجودي في الجبل وخبر (نشاطي) السياسي ومقابلاتي لبعض امراء وزعماء البادية وصل الى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور في سوريا ولبنان.
قالت: ولعل الصحفي الامريكي مستر (ف) هو الذي ابلغ عني، ولو انه اقسم لي فميا بعد انه بريء من هذا.. وعلى كل حال فقد جاءني الامير فاعور، وهو احد امراء البادية وهو صديق لاسرة الطرشان، يحذرني ويقول ان السلطات الفرنسية توشك ان تصدر الامر بالقبض على واعتقالي وانه يجب علي ان اهرب واغادر سوريا على الفور.. وهنا قاطعتها وذكرت لها خلاصة البرقية التي كانت نشرتها جريدة المصري وفيها ان المصري وفيها ان السلطات الفرنسية هي التي طلبت منها مغادرة البلاد وانها، اي آمال اضطرت بعد هذا ان تهرب على ظهر جواد!
قالت: هذا غير صحيح ولو كانت السلطات الفرنسية هي التي طلبت مني مغادرة البلاد فلماذا اهرب علي ظهر جواد؟ كان يمكنني في هذه الحالة ان اغادر البلاد علنا وبالطريق العادي ما دامت السلطات هي التي طلبت مني ذلك.! كلا.. الحقيقة هي ان الفرنسيين ارادوا ان يقبضوا عليّ ولهذا هربت..
تهرب متنكرة في زي عبد!
وتطوع الامير فاعور بتهريبي من سوريا ومرافقتي بنفسه الى حدود فلسطين.. وتنكرت في زي عبد من عبيد الامير! وطليت وجهي ويدي بدهان اسود اللون.. ولبست ملابس العبيد الذين في خدمة امراء العرب.. ولففت رأسي وشعري بالكوفية والعقال وركبت جوادا وسرت وراء جواد الامير فاعور!
وكانت رحلة شاقة طويلة ومتعبة فقد اضطر الامير ان يسلك في بعض اجزاء الطريق طرقا ودروبا غير مألوفة ولا معروفة عند حراس الحدود.. ولقد مررنا بين آونة واخرى ببعض الاستحكامات التي اقامها الفرنسيون.. ولم انس مهمتي فاجتهدت ان اسجل في ذاكرتي كل ماتقع عليه عيناي من تجمعات للجند.. واوكار المدافع.. وجسور او كباري انشئت هنا وهناك في بعض الممرات بين الجبال.. والحصون الصغيرة ومخازن الذخيرة الى آخره..
قالت: وانا احب ركوب الخيل.. ولكن للرياضة! ولكني عمري ما ظننت انني سأكره الجياد وركوب الجياد الى هذه الدرجة..
وعندما عبرت اخيرا الحدود، ودخلت فلسطين كنت احس ان وسطي انقطم! بعد ان امضيت على ظهر الجواد ليلة وبعض يوم!
وودعت الامير فاعور وشكرته.. وفي مساء اليوم التالي كنت في القدس.. ودخلت فندق الملك داود! وكم كانت دهشة موظفي الفندق عندما طلبت منهم ان يقودوني الى الجناح الذي كنت اقيم فيه!
ذلك لاني دخلت الفندق وانا كما انا.. اي سوداء في زي العبيد!
وبعد ان اغتسلت وابدلت ثيابي ارسلت في طلب كومودور باص. ورويت له كل ما فعلته في سوريا، ونتيجة احاديثي ومقابلاتي مع الامير حسن الاطرش وزعماء الجبل والبادية.. ثم قصصت عليه تفاصيل هربي وذكرت له مالاحظته طول الطريق وسجلته ذاكرتي عن الحصو التي شيدها الفرنسيون على قمم بعض الجبال.. الى آخر ماذكرته لك..
وسر الرجل جدا وضمني الى صدره وهو يقول:
مرحى! احسنت صنعا يابنيتي!
زواجها بالامير حسن الاطرش
وبعد ذلك ببضعة ايام تحرك جيش الحلفاء وتخطى حدود فلسطين الى سوريا ولبنان،، والباقي تعرفه مما نشرته الصحف ومن برقياتي فقد عدت في اعقاب جيش الحلفاء الى دمشق. وسكتت قليلا قبل ان تقول: وارسلت لك برقيات عن رغبة الامير حسن في ان اعود زوجة له،، ونصحتني انت بالقبول..
قلت: نعم وحسنا مافعلت!
قالت: على كل حال كان الاحتفال بزواجنا فخما جدا.. واعطاني الامير حسن يومها الفي جنيه.. وضحكت انا وقلت: ثم اخذت منه الفي جنيه اخرى!
ابتسمت رحمها الله وقالت:
نعم. وهل كثير ان يكون مهري اربعة الاف جنيه!
اسراف وسوء تدبير..
وهنا عادت السيدة امينة البارودي من طوافها بالمحال التجارية ومعها سيدة نهضت آمال وقبلتها وقدمتني اليها! وقالت السيدة انها تعرفني من قبل ان تراني لكثرة ما سمعته عني من آمال والسيدة واسمها شفيقة هي ارملة المرحوم فخري بك النشاشيبي وقد قتل بعد ذلك بنحو شهر واد في احد شوارع بغداد اثناء زيارة له لعاصمة العراق وقيل ان القاتل من اتباع سماحة مفتي فلسطين، لان فخري النشاشيبي كان من الد خصوم المفتي كما انه كان متهما بأنه من اصدقاء الانكليز ومؤيدي السياسة البريطانية في فلسطين..
وقالت السيدة شفيقة ونحن حول مائدة الغداء موجهة سؤالها الي:
هل نصحتها؟
قلت: فيم؟
قالت: سمعت منها ان (عيبك) الكبير في نظرها هو اسرافك في نصحها.. ولكن عمرها ما كانت في حاجة للنصح كما هي الان.. قلت: انصحها في ماذا؟
قالت: في اسرافها الجنوني،، كأنما المال يحرق راحتيها فهي تريد الخلاص منه بأسرع مايكون!
وهنا قالت اسمهان:
لم يحدثني في شيء غير هذا مذ حضر!
قالت شفيقة: وهل حدثته انت عن لعبك القمار في بيروت؟.
ثم التفتت الى تقول قبل ان تتمكن اسمهان من اسكاتها: لقد التف حولها في بيروت بعض السيدات وذكرت اسماءهن وهن من سيدات وآنسات اكبقر الاسر اللبنانية الشهيرة العريقة يتملقنها ويدعونها لسهراتهن وحفلاتهن ويحطنها بمظاهر الاجلال والاكرام!.. والمجنونة تظن ان هذا كله حبا في سواد عينيها وماهو الا طمع في مالها لانهن علمنها لعب البوكر وهي لاتفهم شيئا ولن تفهم شيئا في لعب البوكر والنتيجة هي انهن يربحن منها في كل سهرة مئات الجنيهات..
فهل يعجبك هذا الحال؟
قلت طبعا لا، ولكن لعله يعجبها هي! ومضت السيدة شفيقة واسمهان ساكتة لاتجيب مضت تقص على تفاصيل تصرفات لها تدل على الغفلة وسوء التدبير، ومنها مثلا ان (صحفيا) خدعها واوهمها ان عنده مشروعا صحفيا ناجحا لاصدار جريدة يومية رأس مالها الفان من الجنيهات فهل تشترك معه بنسبة النصف في مشروعه الناجح المذكور.
ودفعت له اسمهان الف جنيه.. وصدرت الجريدة.. ثم احتجبت بعد اسبوعين اثنين!
الى اخره، الى اخره..
لاعجب اذن وهذا حالها اذا كانت انفقت خمسة عشر الف جنيه في خمسة شهور!!
واخيرا تكلمت اسمهان فقالت انها ليست (مغفلة) كما نظن بل هي تفهم وتدرك كل شيء ولكن!.
و(يعني) لفظ او تعبير لبناني ممكن ان تعني به كل شيء اي شيء ولاشيء، ولعلها ارادت منه هنا ان تقول انا اعرف انهم يضحكون عليّ ويبتزون مالي ولكن ماذا يهم مادمت اجد في هذا تسلية لي!.
ثم مضت اسمهان تقول ان كثيرين من وجهاء القوم وكبار التجار يقصدونها لكي تتوسل لهم في مسائل معينة عند السلطات الانكليزية او الفرنسية وخصوصا عند الجنرال كاترو الذي يحبها كابنته ويعطف عليها كثيرا، ويعدونها بانهم سوف يدفعون لها مبلغا كذا او يقدمون لها هدية كيت اذا نجحت وساطتها..
قالت: وكثيرا ما نجحت وساطتي في المسائل التي كلفوني بها وجنوا هم منها ارباحا طائلة ولكن قليلين جدا منهم هم الذين وفوا بوعدهم لي..
.. وان تاجرا وماليا كبيرا معروفا في لبنان ومصر وانا اغفل هنا ذكر اسمه وكان صاحب ومدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير وقد ورد اسمه في الكتاب الاسود الذي نشره مكرم عبيد باشا تقرب اليها هو والسيدة زوجته.. بل وجعلته زوجته من نفسها اشبه بوصيفة للاميرة آمال الاطرش تتولى عنها استقبال ضيوفها وتنظم لها حفلاتها وتلازمها في غدوها ورواحها..
واخيرا فاتحها التاجر المالي الكبير في موضوع تكوين شركة بينها وبينه برأس مال قدره مائة الف جنيه.. على ان لاتدفع هي شيئا ما لانه سيتولى هو عنها دفع نصيبها في رأس المال! وطلب منها في مقابل هذا ان تتوسط له عند الجنرال كاترو في مسائل معينة.. وهي مسائل تجارية بحتة ذات قيمة مالية كبيرة..
قالت: ولم يخطر ببالي وقد رأيت من آيات صداقته وصداقة زوجته لي ما رأيت انه يضحك عليّ، وتوسطت فعلا له عند كاترو وقضيت له حاجته.
ثم ابتسمت وهي تقول:
ولكنه لم يكتب عقد الشركة حتى اليوم! بل انقطع هو والسيدة زوجته عن زيارتي!..
الاميرة آمال الاطرش!
وفي المساء اقامت اسمهان او الاميرة آمال الاطرش حفلة استقبال في الصالون الكبير الملحق بجناحها الملكي! في فندق الملك داود.
وكان بين المدعوين بعض كبار الضباط البريطانيين والاعيان وقناصل الدول الاجنبية في القدس ومعهم السيدات قريناتهم. ورأيت الاسراف الذي مابعده اسراف في الطعام والشراب. وقدمتني هي الى مدعويها على انني ((صديق عزيز على مصر)). ولكنني آثرت ان انزوي في احد اركان الصالون واتفرج وابتسم بيني وبين نفسي!
هذا هو الجو الذي تحبه اسمهان.. جو الفخفخة حتى ولو كان مزيفا لاصدق فيه! الجميع ينادونها بلقب (برنسس) ويعاملونها على انها اميرة.. وهي تتحرك بينهم وتتحدث الى هذا وذاك.. ثم تنتقل وتشمل بعطفها هذا وذاك! تماما كما تتصرف اية اميرة في مثل هذه الحفلة! وقبيل منتصف الليل نهضت الاميرة آمال الاطرش واقفة ايذانا بانتهاء السهرة!! وايذانا لضيوفها بالانصراف. ونهض المدعوون والمدعوات واقبلوا يستأذنونها في الانصراف ويشكرونها الى آخره!.
تماما كما يحدث في اي بلاط صغير!!
هذا هو الجو الذي كانت تتنفس فيه آمال الاطرش ملء رئتيها وتحب ان تعيش دائما فيه.. المسكينة! ولاعجب اذا كانت جملة حسابها الاسبوعي (فاتورة) فندق الملك داود وحدها كانت لاتنقص عن اربعمائة جنيه.. اربعمائة جنيه في الاسبوع الواحد وللفندق فقط؟!
واقمت في القدس خمسة ايام تحدثنا فيها كثيرا وقلت لها في صباح اليوم الخامس انني سأعود غدا الى مصر..
قالت: وانا ايضا سأعود الى بيروت

ثم التفتت الى تقول قبل ان تتمكن اسمهان من اسكاتها: لقد التف حولها في بيروت بعض السيدات وذكرت اسماءهن وهن من سيدات وآنسات اكبقر الاسر اللبنانية الشهيرة العريقة يتملقنها ويدعونها لسهراتهن وحفلاتهن ويحطنها بمظاهر الاجلال والاكرام!.. والمجنونة تظن ان هذا كله حبا في سواد عينيها وماهو الا طمع في مالها لانهن علمنها لعب البوكر وهي لاتفهم شيئا ولن تفهم شيئا في لعب البوكر والنتيجة هي انهن يربحن منها في كل سهرة مئات الجنيهات..

اسمهان مع محمد التابعي

أسمهان .. معنى الخلود

د. سيّار الجَميل

اسمهان اكبر من مسلسل

طلب مني بعض الاصدقاء ان اكتب شيئا عن مسلسل (اسمهان) التلفزيوني الذي عرض خلال شهر رمضان الفضيل ، خصوصا عندما تحدثت عنه شفويا في مناسبة ثقافية هنا في كندا .. وكنت قد تابعت هذا " العمل " المتميز لاغلب حلقاته باستثناء حلقتين او ثلاث ضاعت مني وانا في متاهة العمل وزحمة الانشغالات .. وكنت اتمنى ان يحرص كل المهتمين على متابعة ليس المسلسل بحد ذاته ، بل اثارة ذكرى شخصية فنية عربية متميزة كان عطاؤها مدهشا ابان النصف الاول من القرن العشرين .. ثم اختفت بطريقة غامضة .. صحيح انني اسجل كل الاعجاب بالشخصيات التي اعادت كل من قصة وصوت اسمهان الى الوجود .. خدمات ونصوصا وبطولة وتمثيلا وتصويرا وانتاجا واخراجا ، ومقاربة تراجيديا اسمهان الى واقعنا اليوم في القرن الواحد والعشرين ، الا ان اسمهان نفسها ، اكبر من اي عمل فني او غير فني يجسد ذكراها الكبيرة ، وقيمتها الفنية .ان هذا الاسم الذي حفر نفسه في تاريخنا الثقافي والاجتماعي أكبر بكثير مما نتخيله على وجه الاطلاق ، ومهما بلغت درجة الاجادة من قبل اي انسان يتقمّص شخصيتها ، كي يغني أغانيها ، او يمثل دورها .. فهو يعجز تماما عن ادراك الطاقة التي امتلكتها اسمهان منذ ان لمع نجمها وحتى نهايتها المأساوية التي اودت بحياتها ، اذ بقيت تعيش نجمة في ضمائر اولئك الذين يدركون امكاناتها التي لا يضاهيها أحد من المطربين ابدا في الحياة الفنية العربية الحديثة .

الخالدون لا يموتون

اننا نعترف بأن هناك عمالقة من الفنانين والمطربين الذين اثروا الحياة الفنية العربية باعمالهم الغنائية ، وهم قلة قليلة وسط بحر من الاصوات المتنوعة ، ولكن اسمهان كانت قد تفوقت عليهم جميعا بقدراتها الهائلة التي نجح في توظيفها بعض اولئك الذين تعاملوا معها لأكثر من عشر سنوات ، فلنتصور كم كانت ستثري الغناء العربي المعاصر في القرن العشرين ، لو استمر وجودها لعقود اخرى من السنين .. ان رحيلها المبكر ، وبالطريقة التي انتهت اليها حياة اسمهان يعد من الناحية التاريخية اكبر خسارة منيت بها الثقافة العربية الحديثة التي طالما خسرت الكثير من المبدعين الذين لا يتكرر من امثالهم ابدا . ثمة سؤال اعتقد ان من الاهمية بمكان التفكير فيه مليا : لماذا كانت حياتنا العربية تخسر اقوى مبدعيها ، برحيلهم وهم في عز الشباب ؟ هل فكّرنا بنهاية كل من بدر شاكر السيّاب وناظم الغزالي وجواد سليم في العراق ؟ هل فكّرنا بنهاية كل من ابو القاسم الشابي وذكرى الدالي في تونس ؟ هل فكّرنا بنهاية كل من عادل خيري وعبد الحليم حافظ في مصر ؟ هل فكّرنا بنهاية كل من مها الجابري وربا الجمال في سوريا ؟ هل فكرنا بنهايات آخرين وآخرين ؟

وتبقى اسمهان غير كل هؤلاء على وجه الاطلاق .. واذا كان " المسلسل " التلفزيوني قد قدّمها الى عالمنا العربي اليوم ، وفاء لذكراها الطيبة ، واثارة لمجدها الغنائي .. وبالرغم من نجاحه على مستوى التصوير والاخراج والحبكة والاغنيات .. فهو يبقى اعجز من الوصول الى قامتها العالية التي بلغت الذروة ، والتي لم يستطع احد بلوغها لا على مستوى المرئيات ولا على مستوى الواقع ابدا .

الخصلة الاوبرالية الفريدة

هذا الكلام الذي اقوله هنا ، ليس من باب الاعجاب الفني حسب ، ولا من باب كوني تربيت لوالدين يعشقان صوتها .. بالرغم من سماعي اغنياتها وانا صغير من خلال ما يكون يدور في جهاز الكرامافون من اسطواناتها ، وما كان يذاع من اغانيها في محطات الاذاعة طوال الخمسينيات من القرن العشرين ، بل لأن اسمهان قد جمعت خصالا متميزة وفريدة على مستوى الصوت والحنجرة والشجن والاحاسيس.. وعلى مستوى الامكانات المقامية والاداء سواء في فرادة حنجرتها ، وطول نفسها ، ومقدرتها في المياانة او الجواب او القرار .. فضلا عن براعة الاجادة في اداء مختلف التلاحين النغمية التي لا يدركها الا اساتذة الطرب العربي .. وكما كتبت ونشرت قبل سنين طوال ، وانا اقارن بين ثلاثة انواع من الاداء الغنائي والتطريبي العربي ، وهي : الغناء الذي وصلت الى قمة الاداء فيه الفنانة القديرة فيروز ، ثم التطريب الذي وصلت الى قمة الاداء فيه الفنانة الكبيرة ام كلثوم ، اما الثالث فهو حاصل جمع الاثنين معا مع اضافة هائلة من الاداء الاوبرالي الذي وصلت الى قمة الاداء فيه الفنانة الخطيرة اسمهان . لقد حلّل صوتها أحد ابرز خبراء الاصوات ، فقال : " أسمهان صاحبة أكبر صوت في تاريخ الغناء العربي من حيث الخامة، فمساحة الصوت ورنينه الخاص وقدرته على التطبع لاتضاهى. مساحة صوت أسمهان تمتد إلى أكثر من ديوانين، أي ما يوازي أكثر من خمس عشرة درجة على السلم الموسيقي، كما أن لصوتها ميزة التطويع والتطبع مما جعلها قادرة على أداء الغناء الأوبرالي "صوت الرأس" والغناء الشرقي لنوتات الوسط والقرارات "صوت الصدر" ، أما بالنسبة للرنين فلا نقول إلا أنه يمكن لأي مستمع بسيط تمييز صوت أسمهان عن صوت أي مطربة أخرى " .

من هذه النقطة الفاصلة ، علينا ان نبحث عن اسرارها في الاداء ، وهي اسرار استطاع ان يكشف عنها كل من الاساتذة الراحلين : فريد غصن وداود حسني ومحمد القصبجي وفريد الاطرش ومحمد عبد الوهاب .. لقد نجح كل من القصبجي وفريد الاطرش ان يوظفا قدرا ضئيلا من امكانات اسمهان خلال عدة سنوات .. فكيف لو عاشت اسمهان لعشرين سنة اخرى ولا راد لارادة الله ؟ لقد وصلت اسمهان قمة ابداعها مع الموسيقار القصبجي . لقد كتبت قبل سنوات مقالا بعنوان " سايكلوجية الخوف من نقد الكبار " (مجلة الهلال ، يوليو ٢٠٠٠) وكنت اعقّب فيه على مقال الاخ الدكتور جلال احمد امين ، قلت فيه :

ذروة في الاعماق : رائعة يا طيور

" كان محمد القصبجي وأعماله شاهدة على مقدرته العليا على صياغة لوازم موسيقية اصيلة ، وقوية ، وصعبة .. فضلا عن ابداعه في بناء جملة الحان جديدة ومتماسكة مطورا في الالحان العربية ومجددا في الموسيقى الشرقية . واعتقد أنه الوحيد الذي طوّر الموسيقى العربية بأصالة واقتدار .. وكان من قبله الموسيقار سيد درويش الذي سبقه بجيل ! فالقصبجي في موسيقاه من الصعوبة بمكان ان يجد الاصوات التي يمكنها ان تصدح بها ، واذا كان الرجل قد وصل ذروته مع أم كلثوم في رائعة " رق الحبيب " ، فقد كان ذروته ايضا مع اسمهان في رائعة " يا طيور " .. ولقد أبدعت كل منهما في ترجمة التفكير الموسيقي الخصب للقصبجي ..

ولما رحلت اسمهان ذات الصوت الاوبرالي الواسع الى السماء قبل أن يبدأ النصف الثاني من القرن العشرين صفحاته ، فان القصبجي رحل بموهبته الخصبة في أعماقه والتي لم تستطع أم كلثوم ان تنتشلها كي تترجمها بفعل تأقلمها مع الصفحات الجديدة (ذات السلم الواحد للسنباطي) التي سبّبت محنة نفسية وابداعية حقيقية للقصبجي .. فماذا حدث ؟ " .

نعم ، ان اروع ما غنّي في العربية قد تمثل باغنية " يا طيور " لاسمهان التي حلقت من خلالها بعيدا في السماء ، ولم يستطع اي فنان مطرب او مغني عربي ان يتفوق عليها من خلال اللحن الصعب الذي وضعه لها القصبجي .. ولما رحلت اسمهان .. انتهى الصوت الاوبرالي حتى يومنا هذا .

مكابدات اسمهان

اعود الى " المسلسل " ، لأقول : بأن اسمهان اكبر بكثير من سيرتها ووقائع حياتها القصيرة .. انها اكبر من احداث حياة انسان اختلف حولها الناس .. بل والانكى من ذلك كله ، ان ليس هناك انسان عانى وكابد من الاخرين كما جرى لاسمهان .. لقد ارادت ان تحيا كما لو انها مالكة حياتها لوحدها ، ارادت ان تكون حرة في كل تصرفاتها ، ولكن المجتمع كان قاسيا عليها كثيرا .. لقد كانت تحمل معها كل تاريخها الصعب ، وتشعر بانها اكبر من الجميع .. وكانت مؤمنة بذاتها التي اعتبرتها استثناء ليس كالاخرين ، اذ عّبرت عنه بكبريائها ليس كأميرة درزية ، بل كمبدعة غير عادية .. ان التحديات التي صادفتها لم تستطع الاستجابة لها ابدا ، اذ كانت تحاصرها من كل جانب .. كانت حملات الملاحقة والتشويه والاساءة تلاحقها من مكان الى آخر ، وخصوصا من قبل الصحافة واشاعتها التي جاءت من اقرب الناس لها .. كانت مثار لاحقاد وخصومات لا حدود لها .. كانت غير مستقرة ابدا ، ولم تعرف حياتها اية ثوابت نتيجة تربيتها التي جمعت كل التناقضات .. انني اشعر بانها كانت تعرف قيمة صوتها وفرادة دورها ، ولكنها لم تكن تدرك حجم ردود الفعل بالضد منها كونها مبدعة خارقة للعادة .

وقفة نقدية معاتبة

كنت اتمنى على هذا " المسلسل " المتميز ان يمّيز بين اسمهان الفنانة نادرة الحدوث ، وبين سيرة فنانة جمعت كل التناقضات والالام والعبث والتمردات في مجتمع لا يرحم ! كنت اتمنى على " المسلسل " ان يظهر اسمهان للاجيال بكل ما لها من ابداعات ستبقى خالدة مدى الدهر ، بدل الاهتمام بسفاسف حياتها وسيرتها التي لم تعد تهم أحد هذه الايام ! كان على المسلسل ان يتم تركيزه على جوانب اخرى اكثر اهمية ، ويخرج من معطف هذا " المجتمع " الذي جنى على اسمهان في حياتها ، وما زال يلاحقها ليجني عليها بعد اكثر من ستين سنة على رحيلها ! كان على المسلسل ان يظهر اسمهان كموضوع سحقه الزمن وقهره ، لا كذات لها احداثيات اغلب عواملها واسبابها مخفية ومستورة .. ولا يعرفها احد حتى اليوم ! كان على " المسلسل " ان يوازن في الصراع بين اسمهان ومن وقف معها من طرف وكل الاخرين الذين وقفوا ضدها من طرف آخر ! كان على المسلسل ان يظهر اسمهان الحقيقية لا المزيفة .. اذ كانت اسمهان نفسها قد صنعت مجدها كأميرة فضلا عن اللقب الذي ورثته عن عائلتها ! اسمهان اكبر من الذين احاطوا بها .. بل هي اكبر من مجتمع فني نحترمه جميعا ، كانت اسمهان تنتمي اليه ، وقد رفضت عاداته وتقاليده .. وهي اكبر من مجتمع مصري مخملي مزيّف انتمت اليه ، وقد رفضت طقوسه وكل التواءاته ..

وأخيرا .. كنت اتمنى صورة حقيقية مغايرة

كنت اتمنى ان يعرف الناس الصورة الحقيقية لانسانة ادركت منذ صغرها انها متميزة عن كل الاخرين .. ربما كانت معقّدة ، وربما كانت صعبة المراس ، وربما كانت متمردة ، وربما لم تحب احدا نتيجة الظروف القاسية التي مرّت بها .. ولكن الذي قدمته في حياتها القصيرة ، كان اكبر بكثير من الاهتمام بقصة امها الفنانة التي اورثت كل التمرد لابنتها .. وما ابدعته اسمهان كان اكبر بكثير من مناكفات اخوها التي اسهب المسلسل فيها كثيرا .. يكفي ايها الناس ان ما اثارته اسمهان الاوبرالية ، وبالعربية لأول مرة ، كان اعظم بكثير من كل تفاهات الحياة التي لم تزل حياتنا العربية تسبح بحمدها ليل نهار .. وتترقبها وتلوكها الالسنة . ولعل اسوأ ما في حياتنا العربية منذ القدم حتى يومنا هذا، ان يتدخّل الاخرون في حياتك الشخصية ، وينصّبون من انفسهم اوصياء عليك وعلى تصرفاتك التي لا مسؤول عليها الا صاحبها .. ولعل اسمهان التي عانت من ذلك اكثر من غيرها، بتجردها لخدمة وطنها قد فشلت حتى قهرها الاخرون . ولقد اخطأت عندما تنازلت ، واعترفت قائلة : " انا اللي استاهل كل اللي يجرى لي .. " من دون اي فائدة تذكر لا بالاعتراف ولا بالترفع .. لقد قتلوها نفسيا واعلاميا وتشهيريا قبل صدمة تراجيديا موتها وهي في ريعان شبابها . ان ما يعنينا في اسمهان هو معنى خلودها. نعم ، انها كانت وستبقى من اعظم ما انجبته حياتنا العربية على امتداد تاريخ طويل .. فان كان كل علماء الاصوات ونقاد الغناء وفنونه الاصلاء يدركون ما اقول ، فان التاريخ سوف يسقط كل صغائر الحياة اليومية ويبقى اسمهان ابدع امرأة عربية قلما يجود الزمان بمثل صوتها واوبراليتها الرائعة.

عن كتاب نسوة ورجال

كيف ختمت أسمهان حياتها وهل قتلت؟

وصفت أسمهان بأنها كانت سخية كريمة خاصة في رمضان، وفي حفلة حضرت وعليها الطرحة المصرية التقليدية فأعطت في الحفلة كل جندي ١٠٠ ليرة، وكان مبلغا كبيرا يومها.
كانت مبدعة مميزة خلدها صوتها على الرغم من موتها المبكر، ومن أعجب قصص النبوءات عنها وأخويها فريد وفؤاد الأكبر؛ أن مشعوذا دخل عليهم يوما، وكان فؤاد يستعد مع أسمهان للذهاب إلى سورية، وفي نيته أخذ خطيبته اليهودية ليبني بها هناك، وكان ذلك في خطة تزويج أمل من حسن الأطرش، الذي سيسميها أي زوجها حسن بدوره (آمال)، أن قال أي المنجم للإخوة الثلاثة:

خالص جلبي

"أما أنت يا فؤاد فلن تتزوجها. عن الفتاة اليهودية التي أحبها .، وأما أنت. عن أسمهان. فسوف تحملين ثلاثا لن يسلم منهم إلا بنت واحدة! وسوف تموتين غرقا في الماء! وأما فريد فسوف يموت بمرض غريب!
وفجأة تحقق الأول؛ فلم تمنح الفتاة اليهودية فيزا لزيارة سورية، وهناك وقفت العائلة (وهي من طائفة الدروز) بفعل العادات ضد هذا الزواج؛ فلم يتزوج الفتاة التي أحبها قط!
وأما أسمهان فولدت بنتا واحدة سمتها كاميليا، ثم ماتت غرقا في ترعة النيل. وأما فريد فمات كما قال. وبذلك اكتملت هذه النبوءة العجيبة!
عاشت أسمهان فترة في سورية مع زوجها حسن الأطرش، ولكن لم تستقم لهما حياة على الرغم من تعلقه الشديد بها، وحين ودعته في آخر مرة سألها متى ستعودين؟ أجابت بشيء من القسوة بانت في عينيها: إن كنت تطلب مني أن أعود فاحلم بذلك دوما! وهو ما كان، فقد تزوج العديدات بعدها وصلت ربما لسبع؟ ولكن أسمهان لم تعد له قط.
بعد أن رأت أسمهان غدر الانكليز، وعدم وفائهم لعهودهم، وهو أمر ليس بالجديد، وفاتها ذلك غفلة منها، من قصور في الوعي السياسي، أن ملة الكفر واحدة كما يقولون، وهي ملة السياسيين جميعا، فحاولت الاتصال بـ "فون بابن" Von Pappen في اسطنبول، وكان سفيرا لألمانيا هناك، كما كان منظما لشبكة استخبارات الشرق الأوسط التابعة للمحور، إلا أنه ألقي القبض عليها على الحدود التركية، وأعيدت إلى لبنان.
وأما نهاية أسمهان الدرامية فبقدر نهايتها غرقا في ترعة النيل، حين قفز السائق من العربة وترك العربة تمضي باتجاه الهاوية، بقدر غموض دوافع القتل، فقد قفز السائق من السيارة وترك أسمهان وصديقتها لمصيرهما فماتتا غرقا.
واختلفت التفسيرات في هذه النهاية في عدة سيناريوهات؟ بين الغرق الطبيعي؟ أو اتهام أم كلثوم المنافسة لها دون دليل بين؟

وأما نهاية أسمهان الدرامية فبقدر نهايتها غرقا في ترعة النيل، حين قفز السائق من العربة وترك العربة تمضي باتجاه الهاوية، بقدر غموض دوافع القتل، فقد قفز السائق من السيارة وترك أسمهان وصديقتها لمصيرهما فماتتا غرقا.
واختلفت التفسيرات في هذه النهاية في عدة سيناريوهات؟ بين الغرق الطبيعي؟ أو اتهام أم كلثوم المنافسة لها دون دليل بين؟ أو صراع السياسات في المنطقة بين إنكليز وألمان وطليان؟ أو قصة الشرف عند الدروز لما شاع عنها من مصاحبتها أكثر من واحد

أو صراع السياسات في المنطقة بين إنكليز وألمان وطليان؟ أو قصة الشرف عند الدروز لما شاع عنها من مصاحبتها أكثر من واحد، ومحاولتها الزواج من أحمد طلعت وغيره دون نجاح!
وقد تكون مطلوبة من أكثر من جهة؛ فاشتركت مجموعة من العناصر في نهايتها، كما في قتل الحريري وكيندي واختفاء موسى الصدر، وفي العادة كما تعلمنا في الطب أن أي مرض ينفجر، تشترك فيه عادة باقة من العناصر مع ترجيح بعضها، ولكن العامل الداخلي هو الأساس في انفجار الأحداث، ويلعب الدور الخارجي عنصر الإبراز، لحقيقة من حزمة من العناصر الداخلية المختمرة.
ومن أغرب الحوادث في موتها أنها كانت تتدرب على غناء شعر أبي العلاء، وبينما كانت تسوق السيارة يوما وهي تترنم بشعر أبي العلاء؛ غير مجد في ملتي واعتقادي، فوصلت إلى قوله صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد؟ فأصيبت بنوبة إغماء فقدت معها السيطرة على المقود، فسارع من حولها لإنقاذ انحراف السيارة، فلما أفاقت قالت: كأني في جنازة في السويداء يتقدمهم المقرئون مختلطة ترانيمهم بأزيز الطاحونة هناك، وبعدها بأربع سنوات عام ١٩٤٤م ماتت أسمهان في الطريق نفسه على الطريق نفسه عند القطعة نفسها بجنب الترعة.. فكانت ملائكة الموت تزف لها الخبر قبل أوانه بنوع من اللاوعي غير المفسر حتى يومنا هذا ولكنه يتكرر لكل واحد على نحو غامض.
رحمك الله يا أسمهان وسامحك الرب على هفواتك.. ماذا لو بقيت للفن دون سياسة ألم يكن أفضل للتاريخ؟.

عن موقع ايلاف

في خضم تحولات سياسية وشخصية وفنية عارمة، وفي اليوم الموافق لذكرى الثورة الفرنسية الكبرى (١٤ يوليو ١٩٤٤)، أي قبل ستين عامًا، خطف الموت أحد أكبر الأسماء في تاريخ الغناء العربي في القرن العشرين، أسمهان، وهي في شرخ صباها (٣٢ عامًا).
خطف الموت أسمهان قبل أن تنتهي من تصوير المشاهد الأخيرة في فيلمها الثاني (غرام وانتقام)، أمام يوسف وهبي وبشارة واكيم، وبعد أن سجلت فيه بعض أجمل أغنياتها، لثلاثة ملحنين كبار، محمد القصبجي ورياض السنباطي، وفريد الأطرش.
رحلت قبل سنة واحدة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، التي لعبت فيها دورًا سياسيًا إلى جانب الحلفاء، في سعيهم لكسب ودّ القوى السياسية في الشرق العربي.

اسطورة الغناء العربي
أسمهان

سعاد الهرمزي

ورحلت بعد أن انتزعت حريتها الشخصية من قيود انتمائها إلى عائلة الأطرش الكبيرة المحافظة، وهو الانتماء الذي كان قد تكرّس في زواجها من ابن عمها الأمير حسن الأطرش، والذي تخففت بالطلاق منه من الحواجز التي وضعها في وجه صعودها الفني الصاروخي. ورحلت أخيرًا في خضم تحوّلات فنية عارمة، لأنها كانت قد نجحت في منتصف عقد الأربعينيات في التربّع على عرش الغناء العربي الكلاسيكي، على مسافة قريبة جدا من موقع الاسمين اللذين سيطرا على قمة هذا العرش في القرن العشرين: عبدالوهاب وأم كلثوم.

اليوم، وبعد مرور ستين عامًا على رحيلها، وخضوع النصف الثاني من هذه المدة، لسيطرة الغناء الاستهلاكي، الذي نجح حتى الآن في سحب البساط من تحت عصور الغناء العربي الكلاسيكي الذهبية المتتالية بين ١٨٧٥ و١٩٧٥، في تطبيق مذهل للشعار الاقتصادي القائل: العملة الرديئة، تطرد العملة الجيدة من السوق، بعد كل هذه التطورات، تحضر الذكرى الستون لرحيل أسمهان، لتستعيد اسمها على أسنّة أقلام بعض كتّاب الصحافة العربية الراقية، وكأنها رحلت بالأمس، وهالة الكبر والخلود تحيط باسمها، طازجة مشعّة باهرة.
طبعًا، هناك في حياة أسمهان أكثر من سبب، قد يشكّل إغراء لاستعادة ذكرها، فهذه الفنانة التي مرّت في حياتها الشخصية وحياتها الفنية، مرور الصاعقة، مليئة بالأسرار الشخصية والفنية والسياسية، التي لاتزال قيود التخلف العربي الاجتماعي والسياسي والثقافي والفني، تمنع الغوص عميقًا فيها كلها، دفعة واحدة، غير أن أقل القليل من الكتابات الحديثة، التي أشرت إليها، اتجه نحو الزوايا الفنية من حياتها، وأكثر هذا القليل، كان مشدودًا، كالعادة، نحو الأسرار السياسية التي أحاطت فعلاً بعلاقاتها الغامضة مع قوات الحلفاء (وقوات المحور أحيانًا على ما يقال)، والأسرار الشخصية لحياتها التي تأرجحت كثيرًا بين الزواج والطلاق، والعلاقات غير الواضحة بكثير من رجال الوسط الفني من جهة، والوسط الاجتماعي، حتى قمته في القصر الملكي والعائلة المالكة، من جهة ثانية. وبعض المقالات لايزال منصرفًا إلى محاولة فك ألغاز موتها الفجائي الغامض: هل هو بفعل تصفية سياسية، أم بفعل غيرة نسائية غرامية، أم بفعل غيرة فنية؟!
غير أن ما تبقى من سطور هذا المقال، سينصرف تماما إلى إلقاء ما أمكن من الضوء مجددا، على القيمة الفنية الاستثنائية لهذه الفنانة التي اجتازت عتبة الخلود حتما.
وإذا كان هناك إجماع على أن الاسمين اللذين يتربّعان في مقدمة كتيبة الأصوات العربية اللامعة التي صنعت أمجاد الغناء العربي في عصره الذهبي في القرن العشرين، هما اسما أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب، فإن الإجماع يمتد حتى يشمل الاسم الثالث في مقدمة هذه الكتيبة: أسمهان.

سنوات التألق

من غرائب الصدف، ذلك التشابه الغريب في التساوي بين حياة سيد درويش وأسمهان، في امتلاك القيمة الفنية الخارقة، بالرغم من الحياة الفنية الخاطفة، في التماعة أقصر من عمر الورد: ست سنوات لسيد درويش، وسبع سنوات لأسمهان. ومن غرائب التشابه بينهما الموت في مطلع الثلاثينيات من العمر: (١٨٩٢-١٩٢٣) لسيد درويش (٣١ عامًا)، و١٩١٢-١٩٤٤ لأسمهان (٣٢ عامًا).
والحقيقة أن حياة أسمهان قد عرفت – على قصرها – مرحلتين مختلفتين، لأنها كانت حياة فنية ثرية جدا، في عصر فني ذهبي فاحش الثراء.
فإذا عرفنا أن أسمهان قد استقرت في القاهرة في العام ١٩٢٣، طلبا للأمان مع الوالدة علياء المنذر، الهاربة بأولادها من أهوال السياسة والحروب في بلاد الشام (قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها وبعد انتهائها)، فإن هذا العام ١٩٢٣ شهد أيضا انتقال أم كلثوم من الريف للقاهرة، كما أن العام الذي تلاه، شهد انتقال محمد عبدالوهاب إلى رعاية أحمد شوقي، المنصة الكبرى التي أطلقته عاليا في سماء الفن العربي.
صحيح أن أسمهان كانت عند ذاك لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها، ولكن تلك الظروف أتاحت لها أن تترعرع بوجدانها، وآذانها وحسّها المرهف، مع انبلاجة فجر الغناء العربي الكلاسيكي الحديث على يدي أم كلثوم وملحنيها العباقرة من جهة، وعبقري التلحين والغناء محمدعبدالوهاب، من جهة أخرى.
وقد قدّر لأسمهان، في فترة التكوّن الأولى تلك، أن تنال رعاية نفر من كبار الملحنين والعازفين، أمثال داود حسني (الذي حوّل اسمها الأصلي (آمال الأطرش) إلى اسمها الفني (أسمهان))، وفريد غصن ومحمد القصبجي ورياض السنباطي.
بدايات أسمهان في دنيا الاحتراف دخلت بعد ذلك في المرحلة الأولى، حتى العام ١٩٣٣، وكانت هذه البدايات تدور في فلك زعيمة الأصوات النسائية في المرحلة الكلاسيكية الجديدة: أم كلثوم.
والحقيقة أن مَن يراجع سجل أغنيات أسمهان في هذه المرحلة الأولى، التي سبقت العام ١٩٣٣، عام زواجها بابن عمها الأمير حسن الأطرش، يجد فيها كثيرًا من الشبه بمرحلة ليلى مراد الأولى، التي كانت أقرب إلى الكلاسيكية المحافظة، قبل أن يكتشفها عبدالوهاب في فيلم (يحيا الحب)، ويطلقها نجمًا ساطعًا في سماء الغناء العربي الرومانسي الحديث.

الأسلوب الوهابي

عندما بدأت المرحلة الثانية، والأهم في حياة أسمهان الفنية، بعد عودتها إلى القاهرة، هربًا من قيود الزواج، كانت أساليب الغناء العربي الكلاسيكي قد آن لها أن تتبلور وتتخذ أشكالاً واضحة المعالم والحدود بين أسلوب وآخر، بعد مضي اثني عشر عامًا ونيف على انطلاق تجربتي أم كلثوم من جهة (مع فريق ملحنيها الأوائل) وعبدالوهاب من جهة ثانية. وأنا ممّن يعتقدون أن العصر الذهبي للغناء العربي المعاصر،

الذي امتدّ نصف قرن كامل من الزمان بعد سيد درويش، فيما بين ١٩٢٥ و١٩٧٥، قد تسيده بشكل عام أسلوبان رئيسان في الغناء: أسلوب أم كلثوم، وأسلوب محمد عبدالوهاب.

ليس معنى هذا الاستطراد الجانبي المهم في مقال عن أسمهان، أن الأسلوبين كانا متعاكسين، أو متناقضين، فقد ظلت وشائج من القواسم المشتركة تجمع فيما بينهما من البداية إلى النهاية، ولكني أزعم من مجمل غربلتي لعصارة هذا العصر الذهبي بعد معايشة مطولة لهذا العصر، أن الأسلوبين كانا أقرب ما يكون إلى بعضهما في القواسم المشتركة، عندما كانت عبقرية القصبجي التجديدية، هي سيدة الموقف فيما تغني أم كلثوم في الثلاثينيات. وخلاصة القول فيما يجمع بين الأسلوبين، ويفرق بينهما، أن الأسلوب الكلثومي قد استقر على كلاسيكية تجديدية محافظة، بعد جنوح لم يستمر طويلا إلى التجديد المنطلق مع القصبجي، ما لبثت بعده أن حوّلت القصبجي إلى مجرد عازف للعود في فرقتها، ودخلت في المرحلة السنباطية – الكلثومية. أما أسلوب عبدالوهاب الغنائي، فقد ظل مرتبطا أشد الارتباط بالجموح التجديدي الذي لم يتوقف أبدا لدى عبدالوهاب الملحن، وهو ما لم يستطع القصبجي مجاراته، لأنه لم يعد يملك صوتا يؤدي ألحانه، بعد أن قبل موقع (الأسير الفني)، في مملكة أم كلثوم، كمجرد عازف للعود، وقبل نهائيا التخلي عن عبقريته التلحينية التجديدية.

وسط هذه الدراما الفنية العامة، تألقت أسمهان في السنوات السبع الأخيرة من حياتها، من موقع يحلو لي وصفه بأنه كان الترجمة النسائية العبقرية لأسلوب عبدالوهاب التجديدي في الغناء.

لقد بدأت أسمهان هذه المرحلة بقصيدة (ليت للبراق) الكلاسيكية المحافظة من ألحان القصبجي، واختتمتها بألحان (غرام وانتقام)، المنطلقة في كلاسيكيتها التجديدية نحو آفاق واسعة. كما أنها لم تترك في الفترة الوسيطة بين البداية والنهاية، لونا جريئا من التجديد إلا أبدعت فيه أعمالا، تحولت، على قلتها، إلى نماذج طليعية، يتمتع كل نموذج فرد بينها، بصفة نموذج كلاسيكي، بقي حتى يومنا هذا لونا يحتذى في التلحين، كما في الغناء.

من ألحان مدحت عاصم (وضع لها لحنا واحدا ووزع لحنا آخر) غنت أسمهان (دخلت مرة في جنينة)، التي كتب الأديب والمفكر الكبير عباس محمود العقاد، أنه جاب شوارع القاهرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بحثا عن نسخة من أسطوانتها، فوجدها نفدت في كل مكان. وهذه الأغنية، باقية حتى الآن، في لحنها وغنائها وأداء الأوركسترا التي عزفتها، نموذجًا رفيعًا في الغناء العربي الرومانسي. كما نقل لها مدحت عاصم عن لحن تركي أغنيتها الرائعة (يا حبيبي تعال الحقني)، التي مازالت إلى اليوم تتمتع بموقع فريد لدى ذواقة الغناء العربي.

ومن ألحان فريد الأطرش، غنت أسمهان (إضافة إلى ألحان فيلم (انتصار الشباب)

> **أن الأسلوبين كانا متعاكسين، أو متناقضين، فقد ظلت وشائج من القواسم المشتركة تجمع فيما بينهما من البداية إلى النهاية، ولكني أزعم من مجمل غربلتي لعصارة هذا العصر الذهبي بعد معايشة مطولة لهذا العصر، أن الأسلوبين كانا أقرب ما يكون إلى بعضهما في القواسم المشتركة، عندما كانت عبقرية القصبجي التجديدية، هي سيدة الموقف فيما تغني أم كلثوم في الثلاثينيات. وخلاصة القول فيما يجمع بين الأسلوبين**

المميزة والمنوعة) عددا من الألحان التي تراوحت بين روائع الإنشاد الديني، في لحن أوحد هو (عليك صلاة الله وسلامه)، ولحن مخضرم بين الكلاسيكية المحافظة والكلاسيكية المتجددة (رجعت لك يا حبيبي)، ونموذجين رائعين خالدين في الرومانسية العربية الرفيعة: نويت أداري آلامي، وليالي الأنس في فيينا.

أما من ألحان السنباطي، فقد غنت أسمهان واحدة من روائع القصائد الحديثة، لحنا وغناء: يا لعينيك ويالي، وإحدى ذرى القصائد الدرامية الخالدة في تاريخ الموسيقى العربية والغناء العربي، (أيها النائم)، وواحدا من أعظم الأناشيد التي أوجدت صيغة عبقرية بين عظمة النشيد في أوبرات فيردي، وأصول المقامات العربية، هو نشيد (الأسرة العلوية) في فيلم (غرام وانتقام)، الذي منعت إذاعته لأسباب سياسية، ولم يعد اليوم من مبرر لعدم إذاعته، سوى التخلف والإهمال.

ومن الثابت والمؤكد أن فيلم (غرام وانتقام)، آخر أعمال أسمهان الفنية، شهد ذروة انفجار مرجل الغيرة الفنية لدى أم كلثوم، ليس فقط للذروة التي كانت أسمهان قد بلغتها، بل لأن اثنين من ملحّني أم كلثوم العمالقة (القصبجي والسنباطي) قد انصرفا لتحفيظ أسمهان في ذلك الفيلم، بعضا من أعظم ألحانهما.

أما محمد القصبجي، فبعد رائعته (ليت للبراق)، زود أسمهان بروائع مازالت إلى اليوم سابقة عصرها، فيها القصيدة الكلاسيكية الحديثة (اسقنيها)، ومنها تحفته الرومانسية التي لاتزال تبدو وكأنها مكتوبة للقرن الحادي والعشرين (إمتى حتعرف)، ومنها أخيرا رائعته الخالدة (يا طيور) التي لم يستطع ملحن عربي حتى اليوم أن يهتدي إلى أسرار معادلتها العبقرية بين أساليب الغناء الأوبرالي الجاد، وأساليب الغناء الكلاسيكي العربي المرتبط بمخارج الحروف في الكلمة العربية، المغايرة لطبيعة الأوبرا الإيطالية واللغة الإيطالية. وما تنبه أحد إلى اليوم أن أكبر أسرار هذه المعادلة، هو أن القصبجي لم ينطلق إلى الأوبرا من فراغ، أو من عقد نقص، بل من امتلاك متمكن لأساليب الغناء العربي التقليدي المستند إلى جذور الإنشاد الديني، وهي المعادلة عينها التي أبدع عبدالوهاب صياغتها في عدد من روائعه، بينها على سبيل المثال: الليل يطول علي، وأهون عليك، والظلم دا كان ليه.

ووسط هذه الغابة من الروائع التاريخية الخالدة، التي تزاحمت في سنوات أسمهان السبع الأخيرة، جاءت مغناة (مجنون ليلى)، وهي جزء من مسرحية (مجنون ليلى) لشوقي، التي استمر عبدالوهاب بتلحين مقاطع منها، ورحل قبل أن تبصر النور كاملة، وقد جاءت هذه الرائعة الغنية، في رأيي، ذروة غير مسبوقة وغير ملحوقة، في التلحين والغناء المسرحي العربي، الذي يجمع بين أعمق أصول وجذور الغناء العربي الكلاسيكي، وأرحب آفاق الأوبرا كما وصل إليها أربابها في الغرب، الإيطاليون.

ومن بين كل الثنائيات التي غناها عبدالوهاب في حياته، مع أصوات نسائية ممتازة مثل نجاة علي وليلى مراد ورجاء عبده ونور الهدى، فإن مَن يستمع إليها كلها اليوم، ثم يستمع إلى مغناة (قيس وليلى)، يرى أن كل هذه الغنائيات كانت مسرحا لغناء الأستاذ مع تلميذته، أما أسمهان، فقد كانت على صغر سنها يوم غنت دور ليلى (٢٧ عاما أو أقل) أقرب المغنيات إلى أستاذية عبدالوهاب في الغناء.

صحيح أن أسمهان، اختفت بعد ذلك فجأة من ساحة العصر الذهبي للغناء العربي، قبل أن تكمل المشوار، غير أني ممن يعتقدون، أن كل الأصوات النسائية العربية الممتازة التي أكملت المشوار فيما تبقى من عمر العصر الذهبي للغناء العربي، إنما كانت تنتمي إلى إحدى المدرستين الكبيرتين لأسلوب أم كلثوم أو أسلوب عبدالوهاب، الذي كانت أسمهان، ومازالت – في رأيي – بعد ظهور كل الأصوات النسائية الممتازة بعد رحيلها، زعيمته النسائية. صحيح أن كل المطربات الكبيرات بعد ذلك، تميزت بشخصيتها الخاصة، وبنبرتها المميزة، وخصائصها التي تميزها عن سواها، لكن ذلك لم يمنع انتماءها العام إلى هذا الأسلوب أو ذاك، الذي انطلقت منه حتما، وإن وضعت عليه بعد ذلك، بصماتها الخاصة.

هذا هو، في رأيي، السبب الفني الرئيسي، الذي يجعل أسمهان حاضرة في الأذهان بعد مرور ستين عاما على رحيلها. ومع أن أعمالها الخالدة لم تتجاوز في مجموعها الثلاثين أغنية (ينتجها أي صوت نسائي في هذه الأيام في موسم غنائي واحد)، فقد بقيت أسمهان مع كل ذلك، متربعة على العرش، كأنها رحلت أمس، أو كأنها باقية لم ترحل.

يضاف إلى كل هذه الخصائص المكتسبة، موهبة إلهية لم تتكرر حتى الآن، تتمثل في حنجرة نسائية لم يعرف الغناء العربي النسائي حتى اليوم، أوتارا صنعت من معدن مواز لمعدن صوت أسمهان أو مشابه له، أو قريب منه.

عن كتاب اصوات لا تنسى
سعاد الهرمزي

حكايات فنية

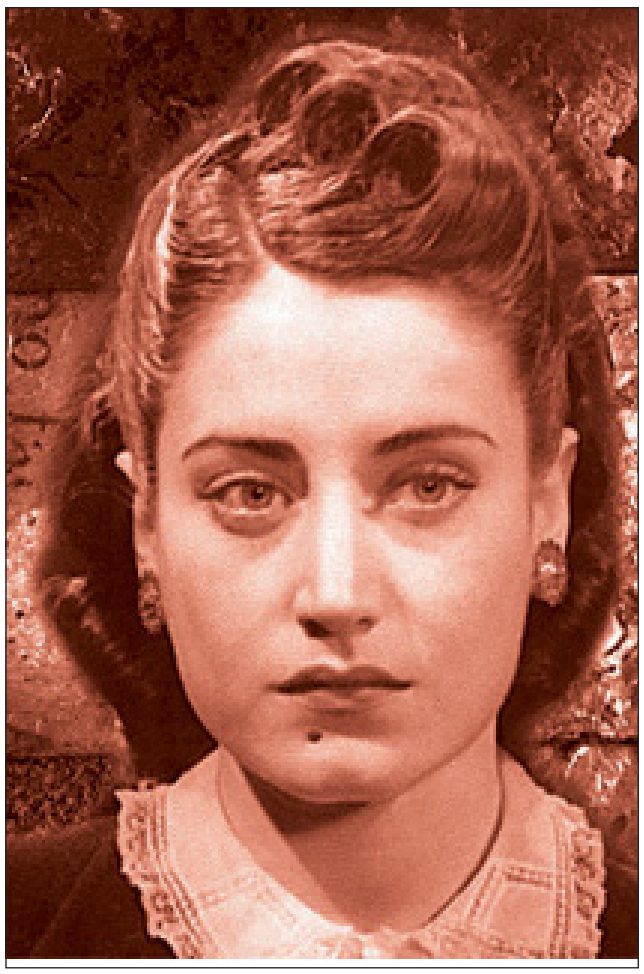

وراء الاغاني عواطف مبدعيها

هلال عاصم

واذا ذكرنا المطربة التي لا تغيب عن ذاكرة الغناء العربي، اسمهان.. واذا كان المطلوب منا ان نوثق حياتها الفنية المرتبطة بتفاصيل عمرها العاطفي فلا شك ان الموضوعية تحتم علينا التخلي عن هذه المهمة فتلك حيتة رغم انطفأتها المبكرة فهي مليئة بالمشاعر الجياشة الصاخبة فقد كان في حياتها السياسي والمفكر والشاعر والملحن والممثل والمخرج وصاحب الملايين والصعلوك الا اننا في هذه المقتطفات من حياة اهل الكلمة المغناة واللحن الجميل نتوقف عند صفحة مطوية من حياة الشاعر الراحل احمد فتحي المعروف جيدا باسم (شاعر الكرنك) حيث ترتبط بعض هذه السطور بملحمة اسمهانية...

كان هذا الشاعر هو الاخر كابراهيم ناجي من جماعة ابوللو او بصورة ادق من بين اصدقاء بعض شعراء تلك الجماعة مما ساعده هذا الامر في نشر البواكير من اشعاره..

ان الحياة القاهرية التي كانت لياليها تعنى من بين ما تعنيه السهر في مسارحها ومنتدياتها ومشاربها، ربطت بين عواطف هذا الشاب وبين اللواتي يرتدن هذه الاماكن من طالبات الشهرة او ممن قد وصلن اليها.

الا ان هذا الشاعر الشاب يذهل ذات يوم وينسى كل من كان قد راهن عندما تلتقي عيناه بمرأى اسمهان..

ولا احد بعد هذا يعرف أي شيء عن المسألة اطلاقا الا ما تكشفه الحقيقة التالية:

في عام ١٩٤٩ عندما كان الشاعر يقيم في المملكة العربية السعودية قام بجمع شعره وطبع مجموعته تلك بعنوان (قال الشاعر) وبين تلك القصائد قصيدته (حديث عينين) المثبت معها كلمة الاهداء الى اسمهان وهي مهداة اليه في آذار ١٩٣٨، وجدير بالاشارة ان الفنانة الكبيرة اسمهان غنت القصيدة لحساب اذاعة لندن من تلحين الموسيقار رياض السنباطي والتي تقول ابياتها الاولى:

يالعينيك ويالي من تسابيح خيالي.

فيهما ذكرى من الحب ومن سهد الليالي..

وعلى الرغم من ان الشاعر احمد فتحي (١٩١٣ – ١٩٦٠) الذي غنى له محمد عبد الوهاب عام ١٩٤١ انشودة الكرنك فقط وغنت له ام كلثوم من تلحين رياض السنباطي عام ١٩٥٣ (انا لن اعود اليك) تحدث كثيرا عن تنكر عبد الوهاب له زكذلك عن ام كلثوم التي لم تغن له غير هذه القصيدة في سنيه الاخير الا ان اسم اسمهان لم يرد في احاديثه ابدا.

مجلة فنون نيسان ١٩٨٥

أسمهان ١٩١٢-١٩٤٤

بعد ستين عاماً ونيف على رحيلها

لم تعرف تلك الصبية الصغيرة أن القدر كان يخبئ لها كل تلك التناقضات التي يمكن أن يعيشها إنسان على هذه البسيطة. صحيح أن حياة كل منا مليئة بالحلو والمر، النجاح والفشل والأبيض والأسود وما بينهما، إلا أن أسمهان عاشت كل حلاوة الدنيا ومرارتها وكأنها عرفت في قرارة نفسها أن عمرها قصير (١٩١٢-١٩٤٤). ستون سنة مضت على غياب صاحبة "ليالي الأنس"، و"فرق ما بينّا" و "يا ليالي البشر" و"رجعتلك يا حبيبي"، و"أهوى"، و"ليت للبرّاق عينا" و"أنا اللي أستاهل" وما تزال دموع حجاج بيت الله، تنهمر في كل عام مع أغنيتها الأقرب إلى الدعاء "عليك صلاة الله وسلامه" بنبرة الخنوع والتوبة، باعثة الرهبة، والحنين إلى مرقد النبي.

الصوت الحزين لما يزل يرن في الأذهان كلما استحضرنا صورتها أو سيرتها أو مشهداً من أفلامها، إذ حيّر النقاد والموسيقيين والملحنين والمتذوقين والعشاق على حدّ سواء.

سحر طه

أسمهان، النبرة الشجية في عالم الأغنية العربية، والشخصية الغامضة الواضحة معاً. عاشقة الحياة والمال، البهجة والحزن، لطالما دفعتها مشاعر مجهولة، قوية لا تقاوَم، ولهفة إلى كل تجربة جديدة ومغامرة، مهما ذهبت بها، بعيداً أو قريباً، من دون أن تهاب موت، أو تردعها تقاليد أو قيود، وكأنها شاءت عن قصد وإصرار، أو عن غير قصد أن تكون حياتها شريطاً سينمائياً، أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، حيث سطرت حياتها بقصص الفقر والألم النفسي والجسدي وسلسلة مغامرات، بدءاً باللهو والسهر والحب واللذة والألم معاً، وصولاً حتى الجاسوسية، بحيث لا تبتعد كثيراً عن قصص أغاثا كريستي الخيالية الشهيرة، وعاشت حياتها بكل ما هو مشوّق، وغريب، وغير معتاد من امرأة شرقية، عربية، وذات أصول نبيلة، لتبقى سيرتها مثالاً للمرأة المتمردة على كل شيء.

هل كانت بذلك تنتقم من تلك الحياة التي شاء لها القدر أن تبدأها بالترحال والهروب منذ لحظة ولادتها وحتى لحظة مماتها، وكأنها تقول لنفسها وللعالم أجمع: إنكم لم تذوقوا طعم الذل والحرمان، ولم ترضعوا الخوف كما رضعته، ولم تجربوا المحن في أيام الطفولة السوداء، في أوقات لم أجد من يحنّ علي وعلى عائلتي بكسرة خبز.

بعيداً عن الموهبة، أسمهان كانت مثال الأنوثة الطاغية والسحر الذي لا يقاوم. جمال وجهها الحزين كان سلاحاً تستمد منه القوة لتنال مرادها من العقول والقلوب. عقول وقلوب الرجال التي طالما ضعفت أمام شخصيتها المحيرة، حتى إن الصحافي محمد التابعي أقرب أصدقائها، قال إنها يمكن أن تبكي بدموع غزيرة في لحظة، ومن ثم تضحك من قلبها في لحظة أخرى. امرأة استعصت على الوصف حقاً، وقد لا يملك امرؤ أن يتخذ موقفاً معيناً منها، لكثرة ما حوته شخصيتها من غرائب السلوك وتناقضاته. جمالها وجسدها الناحل وشكلها العام قد تثير المواقف المتناقضة منها وقد يختلف البعض حول جمال وجهها أو جسدها، لكن في أي زمان وفي أي مكان لم يختلف اثنان على حلاوة صوتها، والقشعريرة التي يبعثها فينا حين نستمع إليه.

عرفت الفقر والغنى، لقبت الفنانة أسمهان وعشقت لقب الأميرة آمال. أحبت الغناء وكرهت الإذلال، تألمت وهي بعد غضة، إذ اضطرها العوز أن تقف ساعات، تغني في صالات شارع عماد الدين، حيث كانت تطوي آلامها، وتغالب دموعها كي لا تسيل أمام جمهور من السكارى والثملين يقذفونها بنكات وألفاظ خاصة برواد تلك الصالات.

أحبت الغناء لأجل المزاج، لا من أجل المال، والغناء لنفسها ولوالدتها ولمن تحب ولمن ترتاح إليهم، لكن الغناء بالأجر مقتته إذ أصبح مهنتها التي لا تستطيع التخلي عنها، بل تعتبره مهنة أسرت موهبتها.

كانت تثور على هذا الوضع أحياناً، لكن ليس بيدها حيلة، فهي مضطرة للاستمرار كي تعيل نفسها وعائلتها. ولطالما رفضت الجلوس مع رواد الصالة بعد انتهاء وصلتها كما كان متعارفاً، وقد حرص شقيقاها فؤاد وفريد على أن لا تلزمها العقود مجالسة الزبائن.

سبع سنوات حافلة سبقت وفاتها، تعتبر من أفضل سنوات حياتها، نالت فيها الشهرة والمال، بعد تعرفها إلى طلعت حرب باشا، الذي قدمها مع شقيقها فريد إلى الموسيقيين والملحنين والإذاعة وشركات الأسطوانات، فأصبح منزل العائلة في ذلك الوقت، في حي غاردن سيتي يستقطب الملحنين والشعراء والمنتجين والمخرجين، الذين كانوا يمطرون أسمهان بمشاريع غزيرة للسينما والمسرح، والجميع مأسور بشبابها وجمالها وأنوثتها الطاغية وصوتها المبدع.

سرّ الصوت

أي سرّ في هذا الصوت المتألئ الذي يأسر القلوب بشحناته القوية، وانحناءاته المفعمة بالدفء والحنان والشجن، بل قدرته على بصم أي لحن ببصمته، وتغليف الأنغام بخصوصيته، وإسباغ الصفة الدرامية الشجية عليه. صوت حمل كمًا من الصفات التي كان يوصف بها صوت متكامل العناصر، وموهبة إلهية قلما يهبها الله لحنجرة ما.

المستمع العادي يستطيع أن يشعر بأوتار الصوت المشدودة، الأقرب إلى صفاء الذهب، في رنينه ولمعانه. صوت أنثوي بالغ الإحساس، مرهف، يتلون مع كل أغنية، حسب مضمونها، ونوعية الدور المسند إليها في السينما، كما في الحياة.

ظهرت أسمهان في زمن العمالقة. في أوائل الثلاثينات. أصوات كبيرة راسخة في الآذان العربية وأذهانها ووجدانها، حين كانت مواصفات معينة في الصوت لم يمكن أن يخترقها أو تخرق قواعدها أي موهبة لا تتقيد بها، إلا أن ذهبية الصوت، أسمهان. كما وصفها الملحن محمود الشريف. لم يتجادل اثنان على جمال صوتها وعظمته وقدرته على سلب المشاعر. ليس بأنوثته ودفئه فحسب بل بمساحته التي هي هبة من الله في المرتبة الأولى حيث ضم صوتها أكثر من أوكتافين "ديوانين"، أي أكثر من خمس عشرة درجة على السلم الموسيقي. إضافة إلى قدرتها على التصويت من الرأس، حسب أسلوب الغناء الأوبرالي الغربي المتعارف لدى مغنيات السوبرانو، وقد نستمع إلى بعض المغنيات العربيات يستخدمن هذه الطريقة وبخاصة اللواتي من أصول مغاربية: تونس والمغرب والجزائر، إلا أن أسمهان تميزت عنهن بصوت ينثني انثناءة الحرير الأصيل، وكان صوتها يأتي صافياً عريضا واضحاً رناناً شجياً لا صارخاً حاداً، بل يتدفق في غاية الحنان والسلاسة والرقة.

ولو عدنا إلى أغنية "ياطيور" التي لحنها محمد القصبجي لوجدنا فيها كل مواصفات الصوت الأوبرالي الدرامي، تضاف إلى مواصفات الصوت الشرقي المعتق بأنغام الأصالة والملوّح بحرارة النبرة المقامية المشرقية بدقتها ورهافتها. فالمعروف في الأصوات العربية ذات المساحة الكبيرة إنها إما تكون متقنة للنغمات الغربية على حساب الشرقية، أو العكس، أما إتقان الأسلوبين معاً في الصوت الواحد فهو من النوادر وينطبق على أسمهان وفيروز، وأم كلثوم في بداياتها، والراحلة نور الهدى، وإلى حدّ ما على المطربة التونسية الراحلة ذكرى.

صوت أسمهان كان الوحي، والملهم لأنغام الملحنين الذين تعاونوا معها، وخبروا الصوت بتعابيره الدرامية، لا في مساحته الكبيرة فحسب، وبخاصة محمد القصبجي الذي لحن لها "ياطيور" وغيرها وشقيقها الراحل فريد الأطرش الذي استوحى من صوتها أجمل الألحان بدليل أن ألحانه لصوته ولغيره من مطربات ومطربين لم تصل إلى مستوى ألحانه لأسمهان، إذ وضع أكثر الجمل اللحنية تناسباً مع موهبتها الفذة وأكبر مثال على ذلك، "ليالي الأنس"، إضافة إلى غنائها ضمن أسلوب الطرب التقليدي الذي كان متبعاً في تلك الفترة. إلا أن أسمهان وبسبب هذا الصوت الموحي بالتجديد والدراما جذبت الأسماع من خلال الألحان التي سبقت عصرها.

في تحليل بعض أداءات أسمهان، يقول الموسيقي سليم سحاب في "كتاب السبعة الكبار لمؤلفه فيكتور سحاب" :

"...التعبير الإنساني يبقى أعظم ما في غناء أسمهان، وهو تعبير يكاد لا يستثني حالة من حالات المشاعر والأحاسيس الإنسانية. ففي أغنية "ليالي الأنس" مثلاً، تنتقل أسمهان بسرعة من مزاج إلى مزاج آخر وفقاً للحن والمعاني. فمن: "خيال ساري مع الأحلام" حيث تغني بشفافية وإشراق بالصوت، إلى عبارة: "تفوت من غير ما تتهنى" حيث تضفي حساً درامياً على النهاوند، وذلك لا استعراضاً أو رضوخاً لإغراءات الاستعراض، بل تعبيراً فنياً عن مزاج يظل شديد الوضوح في كل الحالات.

ويتابع سحاب:

في أغنية "يا حبيبي تعال الحقني"، أربعة مقاطع على لحن يتكرر. والعبارات "من بعدك"، "أتألم"، "في يدك"، "يلين قلبك"، تقولها أسمهان بأحاسيس مختلفة تؤدي تعبيراً مختلفاً في كل مرة، وفقاً للمعنى المطلوب، على الرغم من أن اللحن هو نفسه في العبارات الأربع. وعلى الرغم من أن العبارات المذكورة قصيرة للغاية، ولا مجال فسيحاً فيها للتعبير الإنساني الزخم، إذ أنها تتشكل من علامتين موسيقيتين فقط.

وتلاحظ في هذه الأغنية الشحنات العظيمة والحرارة الإنسانية المتدفقة في عبارة "وغرامي هالكني".

ويتناول سحاب قدرة أسمهان في الوصول إلى مستوى عبد الوهاب في التعبير المسرحي في المغناة المسرحية "قيس وليلى". فيما بلغت في تعبيرها الغنائي أعماقاً مأسوية مؤثرة للغاية في أغنية "أيها النائم" من لحن السنباطي.

حكايات الفقر والبؤس

قصص أسمهان بدءاً بالفاقة في صغرها، تصلح بحد ذاتها لأن تكون مادة غنية لفيلم سينمائي من أكثر الأفلام تراجيدية. بقيت تقض مضجعها حتى وفاتها، إلى حدّ القيام بأي شيء أو عمل كي لا تعود إليها.

حين تتذكر تلك الفترة وترويها لصديقها التابعي تتألم كثيراً، وبخاصة أيام حيّ الفجالة وتعرّضها لسوء التغذية. في إحدى المرات نضب مورد الأسرة بعد سفر المليونير الأمريكي الذي كان يمدهم شهرياً بما يوازي مئة دولار. في تلك الأيام عرفت أسمهان الجوع والحرمان إذ تذكر أن بيتهم خلا من أي طعام فأرسلتها والدتها لاقتراض بعض المال من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، أحد الزعماء السوريين، وهو مقيم في القاهرة وعلى معرفة بأسرة أسمهان، وكانت قطعت مسافة بعيدة مشياً على الأقدام، وحين قابلته وأبلغته رسالة والدتها عن سوء حالهم قدم لها "ريالاً" واحداً، عادت به إلى أمها، وعندما رأته والدتها بكت وبكت معها أسمهان وقدّرت في ذلك الوقت بأنهم أوشكوا أن يتسوّلوا.

وفي قصة أخرى تذكر أسمهان أنها كانت تزور أسرة الأميرالاي محسن بك، وكانت دارهم في شارع الشيخ ريحان بالقرب من ميدان عابدين. كانت تظن أنهم سيقلّونها بسيارتهم إلى منزلها في حيّ الظاهر، لكن السماء أمطرت بغزارة فعدلوا عن الخروج بالسيارة، وحين أقبل المساء والمطر لا يزال ينهمر خرجت بكبريائها وكأنها تريد أن تستقل سيارة أجرة، وقد خجلت أن تقول لهم إنها لا تملك قرشاً واحداً، فسارت تحت المطر وفي الوحول من عابدين حتى الظاهر وبعدها بقيت طريحة الفراش عشرة أيام.

وفي حكاية أخرى، تقول أسمهان:

. بدأت والدتي تعمل في خياطة الملابس للسيدات وكان ما تحصل عليه قليلاً لكنه يقي شر الجوع والفاقة. وذات يوم شاءت المصادفة أن تلتقي أمي في دار صديقة سورية بالأستاذ داود حسني وهو من الملحنين القدماء، وسبق أن تعاون مع العائلة فنياً، وهنا المفاجأة حيث سمع الملحن حسني صوت الوالدة عالية المنذر وهي تغني عند صديقتها وتنقر على الدف "الإيقاع" فسألها لماذا لا تحاول استغلال موهبتها هذه مثل أولادها آمال وفريد خصوصاً أنها تملك الجمال والصوت الأصيل الذي ورثه فريد وأسمهان منها وكانت والدتها تعرفت إلى سامي الشوا عازف الكمان المعروف وهو سوري الأصل من مدينة حلب وهذان الموسيقيان ساعدا والدة أسمهان فنياً وأخذت تحيي الحفلات الخاصة عند بعض العائلات واتسع رزق العائلة قليلاً حيث أمكنها إدخال فريد وأسمهان إلى المدرسة وإتمام الدراسة التي توقفت في بيروت.

وكانت عالية المنذر تعاقدت مع شركة "بيضافون" لتسجيل بعض أغنياتها على أسطوانات فتوسط الملحن داود حسني عند الشركة نفسها كي تسجل أسمهان بعض أغنياتها على أسطوانات أيضاً وتقبض بعض المال.

ملحنون وشعراء

غنت أسمهان للعديد من الملحنين إلا إن أكثر الألحان التي غنتها كانت من نصيب شقيقها فريد الأطرش: "نويت أداري آلامي" ١٩٣٧، "عليك صلاة الله وسلامه" كلمات بديع خيري، وفي فيلم "انتصار الشباب" عام ١٩٤١، لحن لها: "يللي هواك شاغل بالي، يا ليالي البشر"، كلمات يوسف بدروس، و"كان لي أمل" لأحمد رامي، "يابدع الورد" لحلمي الحكيم، "إيدي ف إيدك"، "الشمس غابت أنوارها" لأحمد رامي، كذلك "أوبريت انتصار الشباب" لأحمد رامي. وفي فيلم "غرام وانتقام" غنت لفريد "ليالي الأنس" كلمات أحمد رامي، "أنا أهوى" لمأمون الشناوي، وموال "يا ديرتي" لبيرم التونسي.

وفي العام نفسه غنت لفريد "رجعت لك يا حبيبي". وغنت له "أنا بنت النيل"، وكذلك "نويت أداري آلامي" و "الليل".

غنت لمدحت عاصم أغنية "دخلت مرة ف جنينة"

كلماته وألحانه، "يا حبيبي تعال الحقني". ولمحمد القصبجي غنت: "يا طيور" يوسف بدروس، "إمتى حتعرف" لمأمون الشناوي و"أنا اللي أستاهل" من فيلم "غرام وانتقام" عام ١٩٤٤. "أسقنيها" ١٩٤٠ للأخطل الصغير، "أين الليالي"، ١٩٤٤، ""فرق ما بينا" مطلعها ليوسف بدروس وبقيتها لعلي شكري، "في يوم ما شوفك"، "كنت الأماني"، "كلمة يا نور العيون"، "ليت للبراق عيناً" ١٩٣٨، "هل تيم البان" لأحمد شوقي.

لرياض السنباطي: "أيها النائم" عام ١٩٤٤، و"حديث عينين" ١٩٤٤ في فيلم "غرام وانتقام"، و قصيدة أحمد فتحي "يا لعينيك ويا لي"، وقصيدة لابن زيدون "أقرطبة الغرّاء" و"الدنيا ف إيدي والحب عبيدي". ولفريد غصن "يا نار فؤادي". زكريا أحمد: "هديتك قلبي"، "عذابي في هواك أرضاه" وقصيدة أبي العلاء المعري "غير مجد في ملّتي واعتقادي".

لمحمد عبد الوهاب غنت أسمهان أوبريت "قيس وليلى" للشاعر أحمد رامي، و"محلاها عيشة الفلاح" لبيرم التونسي.

التابعي وأسمهان

نشر محمد التابعي، كتاباً يحكي فيه قصته الكاملة مع أسمهان. ومحمد التابعي صاحب ورئيس تحرير مجلة "آخر ساعة" المصرية كان صديقاً أميناً وصدوقاً لأسمهان، وكان الشخص الوحيد الذي تسرّ له بالكثير من حكاياتها أيام الفقر وتخوفها الدائم من عودة تلك الأيام، وتشكو له كلما فاضت بها المشكلات.

التابعي سمع صوت أسمهان للمرة الأولى، حين مرّ بالصدفة بصالة ماري منصور، في شارع عماد الدين، وهناك تذكر أنه وعد منصور بالمرور عليها، فقرر هو ونفر من أصدقائه دخول الصالة، فلم يجد مكاناً، فتوقفوا لبضع دقائق للاستماع إلى صبيّة تغني على المسرح بصوت رقيق حزين. كانت نحيلة ترتدي ثوباً أسود اللون، وقد لفت رأسها بإزار أسود، وكانت تغني وهي ساهمة تنظر أمامها من دون الالتفات يميناً أو يساراً، ومن دون أن تلقي بالاً إلى صيحات المعجبين. تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها التابعي أسمهان، ليلتها تركت في نفسه شعوراً بأنها إنسانة تبعث الرحمة في الصدور..

ولم يعد التابعي إلى صالة ماري منصور ولم يسأل عن أسمهان حتى قرأ خبراً في الصحف عن زواج المطربة أسمهان من ابن عمها الأمير في جبل الدروز حسن الأطرش وأنها أصبحت أميرة فاستغرب أو عزّ على التابعي أن يصدق أن فتاة من أسرة عريقة تحترف الغناء في شارع عماد الدين.

حتى كان العام ١٩٣٩ رآها صدفة في الجامعة الأميركية في القاهرة، حين كان يهم بالدخول إلى قاعة "بورت" لسماع أم كلثوم، لم يتعرف إليها لكن صديقاً له قال له هل رأيت أسمهان ونحن ندخل؟ وفجأة تذكر التابعي ذلك الوجه بالإزار الأسود الذي رآه منذ ثماني سنوات في صالة ماري منصور، وعرف يومها أنها طلقت من زوجها الأمير الدرزي، فقال: إذن لم تعد أميرة في جبل الدروز. فأجابه الصديق: كلا وعادت كما كانت المطربة أسمهان. وفي اليوم التالي اتصل به الصحافي أحمد حسن وقال له: إن أسمهان تريد أن تتعرف عليك؟

اللقاء لم يتم يومها، بل بعد أسبوعين وبطلب من محمد عبد الوهاب، حيث دعاه التابعي للمجيء إلى منزله فوراً من دون إعلامه بسبب استعجاله.

هنا يصف المؤلف سعيد الجزائري في كتابه "أسمهان ضحية الاستخبارات" أول لقاء بين التابعي وأسمهان:

"...وحين وصل التابعي منزل عبد الوهاب، وجده ممسكاً بعوده، وأمامه أسمهان وكان الاثنان يراجعان أوبريت "قيس وليلى" وكانت أسمهان تغني لحظة دخول التابعي:

"وما فؤادى حديد ولا حجر.. لك قلب فسله يا قيس ينبئك بالخبر.."

تسلل التابعي بهدوء وجلس في المقعد الخالي الوحيد، بجانب أسمهان...وبينما كانت أسمهان مشغولة عنه بالغناء، وهي التي طلبت أن تتعرف إلى التابعي قبل أسبوعين، أخذ ينظر إليها ويتأمل وجهها وهو مأخوذ بحلاوة صوتها الحزين، لكن الأذن ترتاح إليه، فوجهها ليس فيه جمال حسب المقاييس المعروفة، لكنها كانت جذابة وكلها أنوثة، أما أنفها فكان مرتفعاً أكثر بقليل مما يجب وطويلاً أكثر بقليل مما يجب، وفمها كان أوسع بقليل مما يجب ونقنها بارزة إلى الأمام أكثر بقليل مما يجب. أما عيناها (والكلام لا يزال للتابعي) فكان فيهما السحر والعجب والسرّ، لونهما أخضر داكن مشوب بزرقة، وتحميهما أهداب طويلة تكاد من طولها أن تشتبك، وقد لاحظ أنها كانت تجيد استعمال سحر العيون عند اللزوم. انتهت بروفة أوبريت "قيس وليلى" فقدم عبد الوهاب الأستاذ التابعي لأسمهان فمدت يدها بتثاقل وتكلف ساذج وظاهر... تشرفنا... ثم جلس الجميع، فأخذت تصلح من وضع الفراء الذي كان يحيط بعنقها وتتعمد إظهار الخاتم في أحد أصابعها وفيه فص ألماس، وقد احتارت أي ساق تضع على الأخرى، وكانت جميع حركاتها متكلفة وغير طبيعية، وأدرك التابعي أنها تريد أن تحدث أثراً طيباً في نفسه، ومرة ثانية وبعد ثماني سنوات وجد أمامه الفتاة نفسها التي بحاجة إلى الرحمة في الصدور بل وتستحق العطف والرثاء".

وبعد ذاك اللقاء صار التابعي من أقرب أصدقائها بعد صديقتها ماري قلادة التي لقيت حتفها معها غرقاً.

الكل أحب أسمهان، وأسمهان أحبت من؟

لقد عرف عن كثيرين إعجابهم بأسمهان، واشتهرت قصص غرام بعضهم الآخر بها في الأوساط السياسية والفنية، هذا عدا عن رجال كثيرين عشقوها لكنهم لم يحظوا بكلمة منها أو حتى التفاتة أو اهتمام، حتى شارل ديغول أبدى إعجابه بأسمهان إبان عملها مع الحلفاء.

كان الملك فاروق على رأس لائحة المعجبين، ومنذ أن بدأت الأضواء تسلط على أسمهان وبدأ اسمها يلمع في سماء الأغنية في مصر، وضعها ضمن اهتماماته وكان يرسل لها من يسأل عنها في محاولة لكسب ودها. وفي إحدى المرات أرسل لها مبعوثين خاصين مع تعليمات بأنه سوف يمنحها لقب "أميرة" رسمياً، لكن أسمهان ابتعدت عن طريق الملك بذكائها وتحاشت شباكه وسهامه، ليس تعففاً منها. حسب المؤلف. إذ لو كان ذا مرتبة أدنى كرئيس مجلس وزراء مثلاً أو وزير لما تأخرت في الاستجابة، لكن ابتعادها كان تقديراً منها للذات الملكية وخوفاً من التورط.

أما الملك فاروق فلم يستطع القيام بشيء حيال رفض أسمهان له، ذلك أنها فنانة معروفة ومحبوبة لدى الجماهير وأي إجراء قد يتخذه ضدها ربما يعرضه إلى افتضاح أمره.

أما أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي وحامل ختم الملك فكان الأكثر حظوة لدى أسمهان. كان يقابلها بشكل دائم في مكان إقامتها في جناح خاص في فندق مينا هاوس، لوجود هاتف يسهل عليها الاتصالات، وذلك رغم علاقته الحميمة بالملكة نازلي.

كان رجلاً وسيماً يفتن النساء ويلفت النظر في أي حفلة أو مكان بسبب أناقته ومظهره الرجولي واسمه المدوي وتاريخه المليء بالمغامرات الحالمة ومنصبه الخطير وحديثه الساحر وخبرته العميقة بالنساء وطباعهن. استلطفته أسمهان وأعجبت به، بل وشعرت تجاهه بالحب، فهو حامل كل صفات الرجولة والاحترام والكياسة وهذا ما تطلبه المرأة في الرجل غالباً.

أما أحمد حسنين باشا فقد اندفع نحوها بشكل كبير وتودد إليها كما أسلفنا وأصبح الأمر معروفاً لدى الجميع وقالوا إنه غارق في حبها. إلا أن الغريب في الأمر أن باشا آخر كان يتردد على أسمهان في الوقت نفسه هو مراد محسن باشا، وكان مدير الخاصة الملكية ويقال إنه أحب أسمهان كثيراً لكنه كان أكثر تحفظاً واحتياطاً من أحمد حسنين باشا، وكانت هناك منافسة وغيرة بين الاثنين إلا أن مراد باشا أنهى علاقته بأسمهان بعد أن وصل إليه خبر علاقتها بأحمد حسنين باشا.

رغم العلاقة الوطيدة التي ربطت أسمهان بالصحافي الشهير محمد التابعي إلا أن التابعي يصرّ على أنها لم ترق إلى رابطة الحب أو الغرام، رغم أنه كان يذهب إليها في القدس في كل مرة تطلبه فيها، وبخاصة تلك المرة التي تعرضت فيها إلى التهاب رئوي حاد فلم يتركها بل جلس يمرّضها ليلاً نهاراً حتى شفيت وبعد أكثر من عشرة أيام عاد إلى القاهرة، ويومها أرسل إليها ماري قلادة لكي تكون إلى جانبها لشهرين حتى تشفى تماماً لكنها بقيت معها ثمانية أشهر وبعد ذلك لم تفارقها حتى غرقت معها في النيل.

التابعي نفسه قال بأنه كان يرتاح للجلوس معها، وهي كانت تطمئن إليه وتثق به وتلجأ إليه كلما نزلت بها شدة أو حرج كما حدث في أحداث عدة، واعترف التابعي أن أسمهان "لم تحبه" كما لم تحب أي رجل آخر بالمعنى الصحيح للحب، حتى أزواجها الشرعيين، ولكنها أحبته محبة من نوع خاص بها، (محبة أسمهانية) حيث إن قلبها كان يحمل التابعي شيئاً أقوى من الصداقة والودّ، وقد اعترفت بذلك لبعض صديقاتها اللواتي سألنها عن حقيقة حبها له، ولكن ذلك لم يؤكد. أما التابعي نفسه فهو يؤكد أنها لم تُكنّ له أي حب، وهو ليس بمغرور كي يدّعي "وهم" حب لا حقيقة له ويقول:

.نعم كانت تضمر لي وداً وصداقة وثقة وتقديراً ولكن هذا كل ما في الأمر.

هل أغرم عبد الوهاب بأسمهان؟

كانت الراحلة في أثناء فترة ارتباطها بالأمير حسن الأطرش تزور القاهرة من فترة إلى أخرى، وفي هذه الزيارات تجتمع بالأصحاب ومنهم الفنانون كونها على معرفة ببعضهم وصداقة مع آخرين، وكونها من المعجبات بالموسيقي الكبير عبد الوهاب فتعرفت إليه وبادلها الإعجاب وكانت تزوره في داره وقيل إنهما تبادلا الغزل، إلا أن الأمور لم تتطور أكثر من ذلك وتوقفت عند هذا الحد، والسبب، يقول الجزائري في الكتاب نفسه:

"... حسب أسمهان نفسها . إن عبد الوهاب لم يعجبها، فهو في مجلس الغناء والطرب يعجب ويفتن أي أنثى، لكنه في مجلس العشق والغزل شيء آخر لا يعجب ولا يفتن... وأكثر من ذلك وصفته بأنه رجل مغرور يريد من المرأة التي يحبها أن توفر له كل عناء الحب، عليها أن تكون لها جرأة الرجل وأن تترك لعبد الوهاب حشمة المرأة وحياءها وخفرها، أي أن الأوضاع الطبيعية بين الرجل والمرأة تنقلب مع عبد الوهاب...فهو يجلس مطرقاً برأسه وعلى المرأة أن تزحف إليه وعلى ركبتيها وليس عليه بعد إلا أن يتفضل وتقبل منه حبه وخضوعها وقبلاتها، وبعدها يبدأ بالمغازلة كيفما يشاء بعد أن يجد بين يديه امرأة مستسلمة له بكل جوارحها وعلى استعداد تام لأن تقبل منه أي تصرف سادي أو جنسي، لذلك لم يعجب أسمهان لأنه حاول بطريقته الخاصة هذه أن يخضعها لحبه ... فلم يفلح، وحاول عبد الوهاب أن يعيد الكرة ويفرض الحب على أسمهان بعد طلاقها وعودتها إلى مصر فلم يوفق..."

زيجات أسمهان

بدأت شهرة أسمهان في القاهرة منذ أن كانت في السادسة عشرة حيث بدأت تحيي الحفلات والأفراح وتتقاضى الأجور وتحسنت حال العائلة مادياً، فانتقلت إلى شقة في منطقة غاردن سيتي، وبعدها زارهم إبن عمها الأمير حسن الأطرش من أجل طلبها للزواج. والدتها رفضت في البداية، ذلك أن أسمهان بدأت تعيل العائلة وتدر عليها بعض الأموال، حسبما صرحت الراحلة فيما بعد. في ذلك الوقت كانت أسمهان ضعيفة ووالدتها تتحكم بآرائها وقراراتها.

وبعد ذلك جيّش الأمير حسن الأطرش العشيرة ضد عالية المنذر، والدة أسمهان، وأبلغهم بأنها تغني في الملاهي وأن ولديها فريد وآمال يحترفان الغناء، فثارت ثائرة العشيرة، وخشيت الوالدة من العاقبة ومن بطش العائلة. وهكذا عاد العريس إلى مصر مرة ثانية ورتب الأمور وسجل لوالدتها منزلاً في دمشق ودفع لها مبلغ خمسمائة جنيه من الذهب تعتبر ثروة في ذلك الوقت وتوجهت أسمهان وابن عمها مع شقيقها فؤاد إلى جبل الدروز وتم الزواج وأصبحت تحمل لقب الأميرة آمال الأطرش.

لكنها بعد أن انفصلت عنه، عادت وتزوجت منه بعد سنوات، في الثالث من تموز عام ١٩٤١، بعد أن قررت اعتزال الفن والتفرغ للسياسة والأسرة حسب قولها، لكن هل هذا ما حدث بالفعل؟

كانت أسمهان تعمل بإدارة أحمد بدرخان في فيلم "انتصار الشباب" مع شقيقها الراحل فريد الأطرش، وبديهي أن يلتقيا يومياً ويتبادلا الآراء والأحاديث وتشكو ما تتعرض له من حسنين باشا والملك فاروق وغيرهما من المعجبين ويجتمعا إما في أحد المطاعم أو في استديو لبيب مصور الفيلم الفوتوغرافي، وكان بدرخان رقيقاً ولبقاً يحدثها حول خصوصياته أيضاً وحياته المضطربة وكان أن طلب منها الزواج في إحدى المرات وهي كانت بحاجة إليه لأسباب عدة، منها التخلص من بيت الأسرة حيث كانت تلقى الضرب المتواصل من شقيقها فؤاد، إضافة إلى أن أحمد بدرخان كان مخرجاً معروفاً في الوسط الفني، والأهم أنها كانت تعتبر أجنبية في القاهرة وزواجها من مصري يسهل الحصول على الجنسية المصرية. وبذلك كان زواجها العرفي من أحمد بدرخان، الذي لم يكمل الشهرين، ثم أنهاه الطلاق.

التقت أسمهان بأحمد سالم حين كانت تعمل في فيلم "انتصار الشباب"، كان يتردد أحياناً ويساعد في إدارة الفيلم، وهنا كانا صديقين، لكنها في الفترة التي أقامت فيها في القدس صدف أن حضر هو وتحية كاريوكا لبعض الأعمال فالتقى سالم بأسمهان في فندق الملك داود وتقاربا وحدث الزواج السريع وأمضيا أسبوعين في العسل حتى جاءها خطاب بالعودة إلى مصر حيث كانت وقعت عقد تمثيل مع شركة مصر للتمثيل والسينما.

بعد فترة بدأت أسمهان تتململ من الارتباط ومن غيرة أحمد سالم الشديدة عليها وهي التي اعتادت الحرية فدبرت اتصالاً له من تحية كاريوكا لكي يكون نواة خلاف بينهما، لكنه أحس بالظلم وحاول الانتحار مرتين وكل مرة يتم إنقاذه وفي إحدى المرات حاول قتلها حين أطلق عليها النار من مسدسه ولم يصبها، هربت وطلبت البوليس فأصاب أحد الضباط بعيار ناري وأصيب هو أيضاً بعيار من مسدسه وبعد أن شفي قدم للمحاكمة وسميت قضيته بمأساة أحمد سالم وأسمهان.

رغم العلاقة الوطيدة التي ربطت أسمهان بالصحافي الشهير محمد التابعي إلا أن التابعي يصرّ على أنها لم ترق إلى رابطة الحب أو الغرام، رغم أنه كان يذهب إليها في القدس في كل مرة تطلبه فيها، وبخاصة تلك المرة التي تعرضت فيها إلى التهاب رئوي حاد فلم يتركها بل جلس يمرّضها ليلاً نهاراً حتى شفيت وبعد أكثر من عشرة أيام عاد إلى القاهرة، ويومها أرسل إليها ماري قلادة لكي تكون إلى جانبها لشهرين حتى تشفى تماماً لكنها بقيت معها ثمانية أشهر وبعد ذلك لم تفارقها حتى غرقت معها في النيل.

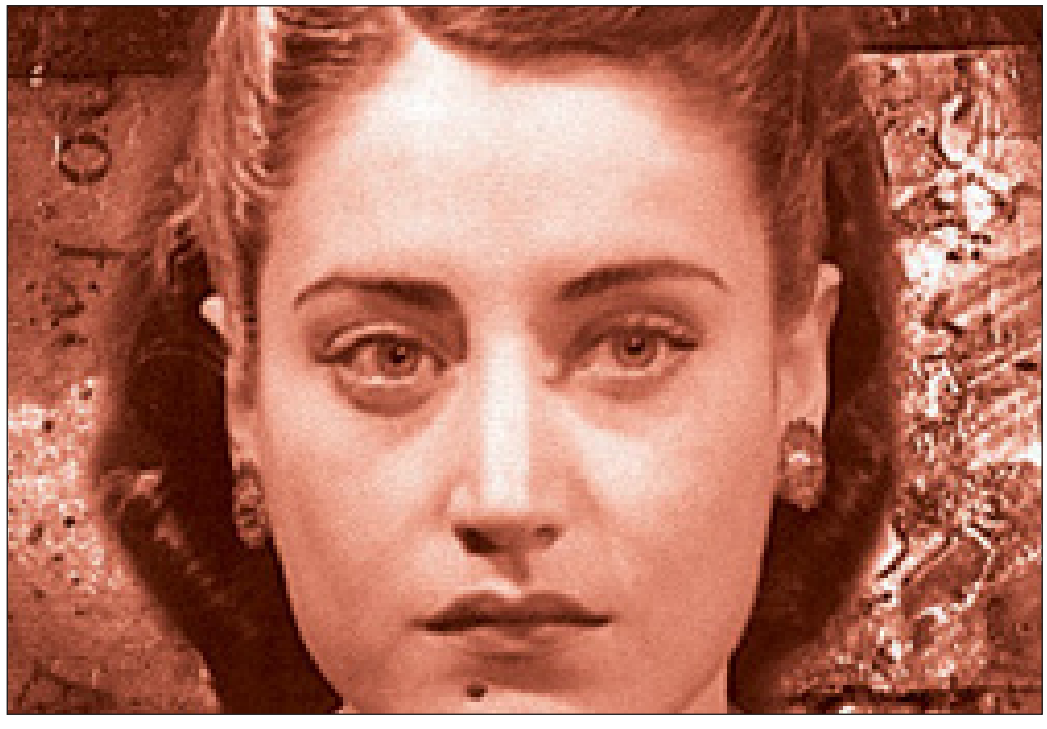

الظاهرة النادرة في الغناء العربي حَمَلَت التناقضات والمواصفات التراجيدية التي قادتها إلى نهايتها التراجيدية مَنْ قتلها شقيقها فؤاد، الملك فاروق، الملكة نازلي، أم كلثوم؟

في ذكرى أسمهان

في ١٤ تموز عام ١٩٤٤ تغرق صاحبة الصوت الذهبي اسمهان في مياه ترعة الساحل قرب طلخا والمنصورة ويسدل الستار على اجمل حنجرة نسائية نافست حنجرة ام كلثوم وتخطت الحناجر النسائية القوية في عصرها لمنيرة المهدية وفتحية احمد ونجاة علي وغيرهن . ولدت في الماء وماتت في الماء وبين الولادة والموت كانت حياة وتألق صوت.

ولدت اسمهان في الباخرة ما بين ديمرجي في تركيا وبيروت عام ١٩١٥ من اب اسمه فهد الاطرش (كان محافظا على ديمرجي) وام بارعة الجمال رخيصة الصوت هي عالية الاطرش . بعد ولادتها سكنت العائلة في حي السراسقة في بيروت فترة من الزمن ..

عادل الهاشمي

وقد اختير والد اسمهان معتمدا لدولة الدروز لدى الفرنسيين وكانت العائلة آنذاك تعيش في ظل طمأنينة رخية .. الى ان اندلعت المعارك ما بين آل الاطرش والدروز من هة وبين الفرنسيين من جهة أخرىً فقرر الفرنسيون اختطاف اولاد زعماء الدروز فخشيت الام .. بعد ان فقد زوجها امتيازاته لدى الفرنسيين .. على اولادها فقررت ان تأخذهم وهم حسب تواريخ ميلادهم فؤاد ١٩١٠ وفريد ١٩١٢ وآمال ١٩١٥ هربت بهم الى مصر عام ١٩٢٣ .

وهناك في مصر اخذت الامور تتعقد لولا تدخل سعد زغلول الذي وفر الحماية لهذه العائلة اللاجئة الهربة.

في حي الفقراء عاشت هذه العائلة عيشة قاسية اضطرت الام الى العمل في مهنة الخياطة لضمان تربية اولادها الى ان اشتغل فؤاد عاملا عند طبيب اسنان. وفي تلك الفترة ظهرت مواهب فريد الموسيقية والغنائية وكان لا يزال تلميذا يشتغل في الصباح طالبا وفي الظهيرة عاملا في محلات البلاتشي في القاهرة وفي الليل عازفا في قرقة بديعة مصابني.

في سنة ١٩٢٨ تفرغ فريد الاطرش للغناء في المحطات الاذاعية الاهلية.

مواهب اسمهان عند فناني عصرها...

ان اسمهان كانت مولعة باغاني ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب وشقيقها فريد الاطرش اول من اكتشف صوتها بعد عائلتها الملحن النابغة محمد القصبجي فعندما سمعها هتف "هذا صوت من الجنة !" ولما سمعها الشيخ صبح صاحب الصوت الجهوري المديد قال: "عندما ينضج هذا الصوت فسيكون له شأن عظيم ! وكان داوود حسني اشهر ملحني ذلك العصر يتردد على منزل الاسرة يعطي دروسا في العزف على العود لفريد الاطرش .. ولما سمع آمال تغني صباح هذا صوت خارق ومنذ تلك اللحظة اطلق عليها الاسم الذي اشتهرت به (اسمهان) وسجلت اول اغنية من تلحينه حيث قبضت عشرين جنيها ووقت لاول مرة في الاوبرا وامام مئات من المعجبين وهي في الخامسة عشر من عمرها كمطربة محترفة وكان نجاحها ونيوع اسمها دافعا لمحمد عبد الوهاب وام كلثوم .. اعظم حنجرتين غنائيتين في عصرنا كله .. الى التودد اليها وزيارتها ويومها قال محمد عبد الوهاب "ان اسمهان فتاة صغيرة .. لكن صوتها صوت امرأة ناضجة" !

شبت اسمهان وهي مؤمنة بكفاءة شقيقتها فريد الاطرش وكانت تقول: "كلما اسمع لحنا لاغنية من اغانيه احس ان الدنيا لا يمكن ان تعادي المبدعين".

وغنت لفريد اول لحن من الحانه (نويت اداري آلامي) وهي فتح جديد في الموسيقى والغناء العربي في ذلك العصر ! ولما حصل سوء فهم بينها وبين فريد الاطرش وكانت تحبه على نحو لا يصدق اراد ان يرضيها فكلف المؤلف يوسف بدروس بتاليف اغنية ليقدمها هدية صلح لحنجرتها الذهبية وكانت اغنية (رجعتلك ياحبيبي) التي لحنها فريد الاطرش خلال ساعتين فقط!

حنجرة اسمهان الذهبية..

على الصعيد الحسي ثمة سبب يدفع صاحب الموهبة الفذة الى ملء الفراغ الذي يدركه تماما من غياب موهبته عن العطاء ان اسمهان تطبع انطباعها فتحاول ان تساهم بصوتها الشامخ في الغناء العربي .

حنجرتها تملك شرارات من النشاط والتوهج ليس فيها ما هو فائض عن الحاجة .. انها قوة تصعيدية يشع منها النور والحرارة والعمل .. تغني بطريقة استثنائية .. ان نبرات هذه الحنجرة الصافية القوية الآسرة تكوينية هندسية عجيبة .. ليست فيها رضوض مخبؤة في حنجرتها اطلاقا.

اسمهان صوت مغلق كافح فيض العموميات الذي ران على الحركة الصوتية الغنائية . ان جماليته الدقيقة كانت صفة من صفات الانقاذ لواقع الحركة الغنائية فالاصوات الضعيفة في عصرها انزوت بعيدا عن الغناء والاصوات الجهيرة راحت تزيد من دأبها في فنون الغناء . ان الكثافة الجمالية لم تكن مصادفة في حنجرة اسمهان .. انها موجودة في الطبيعة الصوتية .. الا ان التمجيد الحقيقي لصوتها جاء من خلال العنصر المادي الموضوعي الخارجي الذي كفل لجماليته معرفة قوانين الغناء وكانت الالحان التي غنتها قد فتحت بابا للفن التعبيري الدرامي الاخاذ ياخذ موقعه في الغناء العربي! يمكن القول ان الحنجرة اسمهان هي اجمل حنجرة نسائية بعد حنجرة ام كلثوم . صوتها قوي النبرات سليم الاداء كثير المقامات مكتمل فاتن قوي النبرات ابتداء من قراره العميق الى جوابه الصادح الممتد العريض المفتوح.

ينتمي صوت اسمهان الى قسم "السوبرانو" القسم الثاني من الاصوات النسائية (الندى الثاني) في التعبير العربي. صوتها يفصح عن انوثة طاغية وطاقة من الحنان الهادر الشفاف في نبرات نبيلة معطرة راقية وهو الصوت الوحيد الذي يمكن له الصمود في مقارنته بصوت ام كلثوم (في الاصوات النسائية) حيث وقف منافسا له!

مدرسة اسمهان الغنائية

الغناء الكلاسيكي في الحناجر النسائية قصة قادها صوت عظيم هو صوت ام كلثوم كأعظم مطربة ظهرت على مسرح الغناء العربي! هذا الغناء الكلاسيكي ميز نفسه داخل حدود فنية تقليدية امتد به العمر طويلا لانه ارتبط بصوت ام كلثوم . في المقابل كان هناك خط ثان للغناء في الحناجر النسائية ظل مشدودا الى مجمل التأثيرات الفنية البارزة في المدرسة الكلاسيكية بنيب متفاوتة الا ان هذا الخط اشغل نفسه بتكوين مناخ فني استقى تياراته الفنية من الغناء العالمي!

وكان صوت اسمهان هو الاطار لهذا الاتجاه . وطبقا لالحاح اظهرته المقاصد السيكولوجية والذوقية والحضارية في تطور الغناء وتجاوز حتى استاذها الشيخ ابو العلا محمد بتجديد اعطى اقصى ما عنده من سماحات .. لكن هذه السماحات كانت تجديدا للخط الكلاسيكي ولم تكن انقلابا عليه . اما الخط العصري الذي تمثله اسمهان فان تاثره بالاسلوب الغربي في الغناء جاء اضافة للاصول العربية في الغناء وليس بناء فنيا فوقيا معزولا عن جذوره الاصلية . ان هذا الاتجاه الفني المشدود الى ايقاع الحياة الغنائية العربية وتأسيساتها البارزة في المعارف والاصول وقد حفظ لحنجرة اسمهان هذا الاثر العميق في الاذن العربية.

احلى ما غنت

تعاونت اسمهان مع اعظم ملحني عصرها .. لقد غنت لداوود حسني وفريد غصن الا ان الثبت ان اعظم الاعمال التي غنتها هي مغناة قيس وليلى من فيلم يوم سعيد مع محمد عبد الوهاب . في هذه المغناة استخدم محمد عبد الوهاب التعبير الدرامي العميق المؤثر ويعتبر هذا العمل من اخلد اغاني اسمهان على الاطلاق .

(يا طيور) حيث برز في هذا اللحن التحليق الاوبرا الى المهذب المصقول الذي صاغه المجدد محمد القصبجي (دخلت مرة بجنينة) لمدحت عاصم الذي استخدم فيها آلة البيانو بتعبير رصين فيه نكهة لتآليف الموسيقى الغربي . (ايها النائم) لرياض السنباطي الذي حاول فيه ان يخرج من اطار التطريب والغنائية السائبة الى التعبير الشرقي الدقيق.

(عاهدني يا قلبي) وهو اللحن الوحيد الذي جمع شيخ الملحنين زكريا احمد مع صوت اسمهان .

اما ابرع واجرأ الالحان التي غنتها اسمهان فكانت من نصيب فريد الاطرش الذي غنت له ما يقرب من نصف انتاجها الغنائي ! ويمكن اعتبار اجمل الحانه هي اغاني : نويت اداري آلامي – ورجعتلك يا حبيبي – ليالي الانس- انا اهوى – يا ليالي البشر – ديالوج الشمس غابت انوارها – واوبريت انتصار الشاب..

في هذا الاوبريت استطاع صوت اسمهان بالحان فريد ان يبلغ ذروته في التعبير والامتداد والشجو والتحليق في فنون الغناء العربي المطعمة بجماليات التعبير الموسيقى الغربي.

ماذا حدث في مسلسل اسمهان

ان حشداً لا حد له من الملامح الفنية جرى في مسلسل «اسمهان» بجدول في بعض مساره فاقد الضفتين، منها على سبيل المثال لا الحصر، التواريخ ميلاد أبطال المسلسل منها على وجه الخصوص فريد الاطرش واسمهان، الى جانب ذلك غياب الدقة في بث الاغاني التي ملأت عصرها، كأن يبث المسلسل اغنية (رق الحبيب) التي لحنها الموسيقار محمد القصبجي لصوت ام كلثوم في الثلاثينيات، بينما الصائب ان هذه الاغنية ولدت في العام ١٩٤٤ وهو العام الذي شهد نهاية اسمهان، وان يغني الموسيقار محمد عبد الوهاب اغنية (الحبيب المجهول) امام اسمهان في بداية مشوارها الفني وهي الاغنية التي ولدت في العام ١٩٤٤، ثم هناك الاشارة العابرة الى الفنان فريد غصن حيث يكنيه فريد الاطرش وشقيقه فؤاد بالعم مع ان ولادة غصن في العام ١٩١٢ في الاسكندرية اسقاط ذكر زواج اسمهان من المطرب المصري المغمور (فايد محمد فايد) بالقدس في العام ١٩٤٢ ولم يدم هذا الزواج سوى عشرين يوماً،

سعت من خلاله اسمهان للحصول على سمة الدخول الى مصر بعد ان طرأت على علاقتها مع الانكليز علامات الشك والريب! وعلى امتداد المسلسل (اسمهان) تمر بنا سلسلة صور ومشاهد من اجيال وتتسع هنا وهناك من مسار ،اسمهان، خطوط من الاحداث والمواقف والمتغيرات وتتراقص في وتيرة العمل الفني ومضات تتبدى وتتلألأ وتختفي من مناطق السطح التاريخي، ومن ثم يؤدي ذلك الى اتساع التفاوت بين القوى الابداعية المحركة لاحداث المسلسل.

بلا جدال ان مسلسل (اسمهان) ايقظ روح العظمة في هذه المطربة الخارقة وايقظ ايضاً جميع امكاناتها الفنية في صراع شجي بغية صيانة تاريخها الحقيقي، ذاك الذي تداهمه قوى من الفوضى والتغييب الذي تهمهم وتدمدم محاولة لتشويه هذا الاسم الخالد في موكب الغناء العربي العريق والاصولي، ان اكتمال اسمهان الظاهري والباطني في الملحمة الغنائية العربية هو مغزى جميع الذروات التاريخية في مجراها وديمومتها واسمهان الاسم الذي مر في واحة الغناء، كما مر (رامبو) في واحة الشعر على حد تعبير (مالارميه)، ومرور اسمهان كلما اقترب من ذروة تألقه، ضبطاً وشدة، عراقة وعصرنة، يزداد الخط الحضاري لغنائها نقاءً وصفاءً.

ان الصبوات الى الحقيقة، الى الخير، الى التقدم، تؤلف جزءاً لايتجزأ من تصورنا للجمال، والصوت الملائكي لاسمهان المقترن بالعذوبة والجزالة والقوة والتمكن والابهار، هو نبع من ينابيع الجمال، لذلك فان الحس الجمالي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بشبكة كاملة من الافكار. ان احساسنا بجمال صوت أسمهان لم يكن في يوم من الايام ترفاً ولامحض ذوق، انه مران خلقه التدرج في المعارف الصلبة لمعايير الجمال، واذا كانت اسمهان صاحبة حنجرة لا مثيل لها في الغناء من حيث التكوين الفسيولوجي والتكوين البيداغوجي، فأنها كإنسانة طمحت بغير حدود الى معانقة روح الحرية في فنها وانسانيتها، واذا كانت الحرية هي اللعنة فهي الحرية المصدر الوحيد لنبل الانسان، لقد اختلط في حياة اسمهان القصيرة مفهومان، مفهوم الحرية الشخصية لحياتها الانسانية، ومفهوم ضرورية الفن كواجب ينطوي على نفع اجتماعي، فبين المفهومين عند اسمهان ضاعت الابعاد وتلاشت الحدود، ان الاستنساخ للحياة في الفن عملية سوسيولوجية كبرى، هو ملكة يتوجب علينا الا ننسى ادخالهما في حساب نظرية التركيب التاريخي للصوت والاسم والشخصية، فالفنان بأستنساخه حياته في اعمال فنية، يعد نفسه لحياة اجتماعية ويتكيف معها، لكن الامر مع اسمهان ربما يختلف قليلاً او كثيراً، انه محاولة لاقحام مفهوم الحرية ازاء موقف شخصي من الفن، ولذلك تداعت في حياة أسمهان الكوارث لتؤكد ان الصدق الفني شرطه الوحيد، هو اتحاد الهم الانساني بالهم الفني اتحاداً لا انفصام فيه. لماذا اراد والدها

ان يسميها (بحرية) ؟

كان موت رافائيل وميكل انجلو وليوناردوا دافنشي المبكي سيترك في فن عصر النهضة الايطالي ثغرة، وكانت هذه الثغرة ستترك اثراً بالغاً في مظاهر ثانوية عدة من تاريخه، ولكن ماكان هذا التاريخ ليطرأ عليه تبدل جوهري اذا لم تحدث في مسار التطور الفكري لايطاليا تحولات عميقة! المهم ان موت اسمهان الغامض والمفاجيء والمبكر، كان من الممكن ان يحدث ثغرة كبيرة في فن الغناء، لو لم تفيض الاقدار السعيدة صوت ام كلثوم، التي استمرت تغني على مدى ستة عقود من السنين قبل اسمهان وبعدها.

×××

من هي اسمهان؟ التي حمل المسلسل اسمها وجسدت شخصيتها الممثلة السورية (سولاف) ومثل الموسيقار فريد الاطرش (احمد شاكر) الممثل المصري، واخرجه المخرج المغربي (الماجري) وكتبه (المالح).

اراد ابوها الامير فهد الاطرش ان يسميها (بحرية) لانها ولدت بالبحر في الرابع والعشرين

> **شبت اسمهان وهي مؤمنة بكفاءة شقيقتها فريد الاطرش وكانت تقول: "كلما اسمع لحنا لاغنية من اغانيه احس ان الدنيا لا يمكن ان تعادي المبدعين".**
> **وغنت لفريد اول لحن من الحانه (نويت اداري آلامي) وهي فتح جديد في الموسيقى والغناء العربي في ذلك العصر !**

من تشرين الثاني- عام ١٩١٤، حين كان يعود بعائلته سراً الى الشام بعد هزيمته عسكر السلطان الذي كان يقودهم في بعض الممتلكات العثمانية بأوروبا، في الحرب العالمية الاولى، لكن والدتها الاميرة عالية المنذر سلسلة آل المنذر في حاصبيا (لبنان) اسمتها «امال» لانها ولدت مع امل النجاة اثر ليلة كادت فيها الباخرة تغرق، اما العرب والاسماع في كل مكان عرفوها وعظموها بالاسم الذي اطلقه عليها الموسيقار داود حسني ١٨٧٠-١٩٣٧ اسمهان على اسم مغنية عربية مجيدة من عصر سابق على عصرها، وكان اول بر وطأته قدمها الطفلة الوليدة ارض بيروت قبل ان تعود الى موطنها الاصلي سوريا (الجبل) وقد سبقها الى هذه الدنيا من والديها اخواها الاكبر فؤاد ١٩٠٩- ١٩٩٥ ثم الموسيقار الشهير فريد الاطرش ١٩١٢-١٢٧٤ ولما استتب الامر للحلفاء وانهزمت الدولة العثمانية في العام ١٩١٨ وهو عام انتهاء الحرب العالمية الاولى، عمل والدها الامير فهد الاطرش معتمداً للدروز لدى الفرنسيين في بيروت وكان اعتماده سنوات عز وترف، وكانت والدة اسمهان الاميرة عالية ثوار اول سيدة قادت سيارة في بر الشام ولم يكن لهذا العز امكانات الدوام حيث استقر ثورة جبل العرب بزعامة سلطان باشا الاطرش سنة ١٩٢٢، عندما اقدم الفرنسيون على اختطاف الثائر (ادهم خنجر) وقد انضم فهد الاطرش الى الثورة، ثورة جبل العرب وكان على الاميرة عالية ان تلحق بزوجها حيث يقاتل، لكنها خشيت سوء العاقبة، ولم تلحق به، وما كان لامير من اشراف الدروز ان يدع زوجته تعيش وحيدة فقد طلقها ثم جاء من يخبرها بان الفرنسيين الذين خسروا ألاف القتلى في حرب جبل الدروز جبل العرب يسعون الى اختطاف الاطفال لاتخاذهم رهائن انتقاماً من ال الاطرش، وكان لابد من الهرب، فهربت الاميرة عالية المنذر بأطفالها فؤاد وفريد واسمهان من بيروت بالقطار الى حيفا في فلسطين ثم الى مصر في العام ١٩٢٣.

في العام ١٩٢٣، كان عام الاغزر ثمراً في مسار الحركة الموسيقية العربية، استقرار المجودة العظيمة ام كلثوم نهائياً في القاهرة قادمة من قريتها (طماي الزهايرة) ثم انتظام الموسيقار محمد عبد الوهاب في صفوف معهد فؤاد الاول للموسيقا العربية، ثم رحيل العبقري سيد درويش ١٨٩٢-١٩٢٣.

ان سيكولوجيا الشخصيات الفنية تكتسب في انظارنا اهمية قصوى ، على وجه التحديد، لانها سيكولوجيا طبقات اجتماعية بكاملها او في الاقل شرائح اجتماعية بكاملها، ولان العمليات التي تجري في نفوس شتى الشخصيات الفنية، هي بالتالي اظهار الحركة التاريخية، ان تطبيق الدروس على الظاهرات الفنية التاريحية يحمل معه مضموناً جديداً كل الجدة لكلمة «معاصر»!

وفي القاهرة ومع اسمهان، تبدل العز الى فاقة ونقل الاولاد باحسان المحسنين الى المدارس، وعرف لقبهم هذه المرة من ال(كوسة) اخفاءاً لاسم عائلتهم الحقيقي خشية بطش الفرنسيين، وكرت السنون وانتهت ثورة الجبل العرب في العام ١٩٢٦، لكن العائلة استقرت في القاهرة وبدأت تنسج خيوط حياتها الجديدة، بما فيها من قسوة وصراع وخشونة وتهافتت مسالك المجد السياسي التي ورثها ابناء الاميرة عالية المنذر، من عمومتهم لتحل محلها مسالك النزوع نحو الفن الذي ورثوه عن أخوالهم، وكان خالهم (خليل المنذر) الذي وافته المنية في عز شبابه.

تتزوج اربع مرات

والحصيلة بنت واحدة

صاحب حنجرة تسيل عذوبة وحلاوة، وكانت ايضاً عالية المنذر تضرب على العود وتغني بأجر زهيد في روض الفرج، واوكلت الى علمين من اعلام الموسيقا العربية مهمة تعليم فريد الاطرش واسمهان اصول الفن، هما دود حسني ومحمود صبح حيث توسما الاثنان في فريد الاطرش امكانات النبوغ بصياغة الالحان والعزف على العود، ورأى الاثنان ان اسمهان امل جديد في الغناء العربي كله، ولما تحول بيت الاطرش الى مزار الفنانين، عمل فؤاد الاطرش على مقاومة هذا النزوع الفني فقد وعى ملامح الزعامة السياسية لآل الاطرش، فثار على مسلك الاتجاه نحو الفن الذي اخذ فريد الاطرش واسمهان يقطعان فيه شوطاً لفت اليهما الأنظار، بل هو مقدمة تنبئ عن احتراف لابد ان يأتي في يوماً ما، فغادر الى جبل الدروز عام ١٩٢٩ الى والده الذي انصرف الى زوجة جديدة وعائلة جديدة، والتقى هناك بابن عمه الامير حسن الاطرش الذي اعطاه الكثير من اهتمامه رغم مشاغله الكثيرة، وقد طلب فؤاد من ابن عمه ان ينجده في طريق اسمهان الموغل في الفن، واستجاب الامير حسن وتزوج من ابنه عمه اسمهان، واستطاع فؤاد ان يبعد عن بيت امه في القاهرة حشود الفنانين وان يبعد شقيقه الى دمشق ثم الى الجبل او هكذا كما اظن.

اما فريد الاطرش فبقي في القاهرة مع امه يشيد بناء شهرته ومجده الموسيقي درجة درجة، لكن اسمهان بعد ان انجبت من حسن الاطرش ابنة اسمتها (كاميليا) ضاقت بها الارض بما رحبت، فأقدمت على الانتحار في دمشق اول مرة ثم انتهزت فرصة سفرها الى القاهرة عام ١٩٣٥ لزيارة امها لكي تنشد الاستقرار في عاصمة الفن العربي ثم اصرت على البقاء في القاهرة طالبة من الامير حسن الطلاق فطلقها.. انصياعاً لحبها الشديد للفن.

ومابين عامي ١٩٣٦-١٩٤٤ سنة رحيلها عملت اسمهان على صنع المدهشات في الفن الغنائي لتسعد جمهوراً واسعاً وكبيراً وضعها في مكانة متقدمة في عصر العمالقة لاتدانيها مكانة، وفيما كانت تلهث وراء يوم تسعد فيه نفسها، فانها لا تصادف الا الماسي، لاختلاط الرؤية وافتراقها بين الهم الشخصي والهم الفني، كما اشرنا، حيث جرت محاولة انتحار ثانية في القاهرة وثالثة في القدس، ثم زواج ثان من المخرج (أحمد بدرخان) مخرج فيلمها الاول مع شقيقها فريد الاطرش (انتصار الشباب) ١٩٣٩ لايدوم سوى اربعين يوماً، ثم زواج ثالث من المطرب المصري المغمور (فايد محمد فايد) في القدس عام ١٩٤٢ وهو زواج حتمته الضرورة وكان عمر عشرين يوما فقط سعت اليه اسمهان للحصول على حجة لدخول مصر بعدما حل الخصام والصراع مع الانكليز الذين تحالفت معهم اول الامر للانتقام من الفرنسيين الذين قتلوا أبناء شعبها.

زواج رابع واخير من الممثل السينمائي (احمد سالم) لم يدم سوى اشهر معدودة حيث انتهى بتبادل اطلاق الرصاص الذي كان يزهق روح احمد سالم وروح ضابط الشرطة، غرقت اسمهان في النيل مع وصيفتها (ماري قلادة) في الرابع عشر من تموز في العام ١٩٤٤ وهو اليوم ذاته الذي ولدت فيه ابنتها كاميليا، وتشكل هذه الحادثة حلقة المؤامرة الكبرى التي شاركت فيها اطراف عديدة.

القيمة الفنية لصوت اسمهان تتجلى، في انها مثلت بعمق وحنان ودفء الخط المتأثر بالروح العصرية في فن الغناء عند الحناجر النسائية، بينما بقيت ام كلثوم حتى اليوم الاخير من حياتها تمثل الخط الكلاسيكي التقليدي في فن الغناء عند الحناجر النسائية ، على ان تاثر اسمهان بالغناء العصري لم يجعلها تتغرب عن فنون الاداء العربي الكلاسيكي واصوله الضاربة في اعماق الباطنية التاريخية العربية.

ان ام كثلوم قفزت بالغناء الاصولي والكلاسيكي قفزات مذهلة تجاوزت احلام استاذها الاول الشيخ ابو العلاء محمد (١٨٧٨-١٩٢٧) على ان التجديد العائد لام كلثوم في انماط الغناء العربي الكلاسيكي، كان تجديداً لاصول ذلك الغناء لا تغرباً عنه، اما في الظاهرة التي مثلتها اسمهان، فان الامر يختلف باختلاف الانطلاق الفني عندها، فقد عملت على ادراج عناصر التجديد الاوروبي في الاداء الذي حمل رايته ثلاثة من كبار ملحني الموسيقا العربية، هم محمد عبد الوهاب، محمد القصبجي، فريد الاطرش، على ان صوت اسمهان كان يأخذ من اساليب الغناء الاوروبي المختلف عن اساليب الغناء العربي باكثر من اتجاه وتنوع، لعل في المقدمة من هذا الاختلاف.

موت غامض سبقته حياة مضطربة

ان اسمهان كانت تجيد اخراج الصوت من الرأس، وهذا هو جوهر الغناء الاوروبي والغربي عموماً، بينما ام كثلوم كانت تقف بغنائها العظيم عند اخراج الصوت من الصدر، وهو جوهر الغناء العربي الكلاسيكي، من هذا التحديد نكتشف اقتران اللون الغنائي بين الحنجرتين الصادحتين، ولم يقف الامر عند هذا الافتراق بين لوني الحنجرتين، انما عمل على تكتيل جهود الملحنين الكبار لخدمة صوت اسمهان الخارق، فبينما كان صوت ام كلثوم يحظى بجهود ثلاثة من الملحنين يتقدمهم محمد القصبجي وزكريا احمد ورياض السنباطي، قبل ان يدخل جلبة صوتها المعجز محمد عبد الوهاب ومحمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي في المقابل كان صوت اسمهان يقوم على جهود ملحن واحد هو فريد الاطرش، قبل ان يتجه الى صوتها ملحنون من وزن محمد القصبجي ومحمد عبد الوهاب ورياض السنباطي ثم فريد غصن ومدحت عاصم وايضاً الشيخ زكريا احمد.كان لصوت اسمهان خصائص عظمى قلما تتوفر عند غيرها من المطربات، ان لم نقل انها عسيرة على الاجتماع تماماً في صوت من الاصوات، حيث تستطيع اسمهان ان تؤدي مختلف المقامات بسهولة ويسر، هرع الى صوتها الموسيقار محمد عبد الوهاب، حيث وجد فيه القيمة والاتساع والبلاغة الادائية تلك التي تمكنه من ملامح المقابلة مع صوته العظيم، لكي تؤدي معه مغناة (مجنون ليلى) الخالدة : شعر احمد شوقي، ومدحت عاصم فقد وجد في صوتها مقدرة مكتملة تستطيع ان تؤدي المقامات الخالية من ربع الصوت، فأعطاها لحن (دخلت مرة بجنينة) والموسيقار رياض السنباطي الذي عقد على صوتها الامال في القصيدة الحديثة التي كان قد بدأ بها اتجاهه الفني في تطوير قالب القصيدة (يالعينيك وبالي) شعر احمد فتحي، شاعر الكرنك التي لحنها وغناها محمد عبد الوهاب وفريد الاطرش شقيقها الذي وجد في صوت اسمهان المدى العريق الذي يغنيه عن جميع الاصوات، فعبر صوتها ارقى سمات التلحين فأصبح الموسيقار الذي لحن اكثر اغانيها على الاطلاق، فالى جانب قيامه بتلحين اغان وحواريات طقاطيق وقصائد واوبريت ليل الاندلس لفيلم (انتصار الشباب) لحن لها اغان من وزن (نويت اداري الامي) و(رجعتلك ياحبيبي) ثم (عليك صلاة الله وسلامه) ثم (ليالي الانس في فيينا) (انا اهوى) وموال (ياديرتي مالك علينا لوم) ثم (اعمل أيه علشان انساك) وكثير غيرها.

ومحمد القصبجي، الموسيقار الذي عمل على تكريس صوتها لالحانه المشرقة القوية، وهو الذي اعطى ابعاد هذا الصوت العظيم كل المدى الذي يستطيعه من دون ارهاقه أو ان ينقص شيئاً من عذوبته (ليت للبراق عينا) (اسقينها بأبي انت وامي) (هل نيم البنان) ثم (امته حتعرف) (انا اللي استاهل) وسواها.منذ البداية ادركت ام كلثوم انها امام خصم عظيم القدر فحاولت من جانبها على حصر الحان القصبجي لحنجرتها دون غيرها، لكن عاشق الاصوات الجميلة لم يستطع الايفاء بما طلبته منه ام كلثوم، ولعل هذا اول جفاء يحصل بين القصبجي وام كلثوم وكاد الامر يتطور الى محاولة طرد القصبجي من تخت ام كلثوم لولا تضامن افراد الفرقة معه وبعد هذا الاثر الخطير من الاغاني التي قدمتها اسمهان اضحت قمة في الغناء والاداء، حيث لم تعد تفكر كثيراً في ام كلثوم وموقف ام كلثوم منها، كانت في مجد يشبه المجد الذي وقفته ام كلثوم، وهي تتحدى بفنها وصوتها مطربات عصرها، بعد ان هوت عروشهن ونهض عرشها.المهم لم تثر الابداعات النقدية في الموسيقا أي جدل فيما يتعلق بعظمة صوت ام كلثوم وعظمة صوت اسمهان، لكن الجدل احتدم وفاق وانتشر في المفاضلة بين اسمهان وام كلثوم نفي ما كان يرى الموسيقار محمد القصبجي ان اسمهان اعظم صوت ادى ضروب التحديث الغنائي، وجد الموسيقار، ان اسمهان كانت ستقود المنافسة مع ام كلثوم (فيما لو عاشت) الى ذروتها، واضاف ان اسمهان لو عاشت، لما احتاج الى الحانه أي صوت اخر!

بينما يرى الموسيقار، محمد عبد الوهاب، ان اسمهان صاحبة نبرة جديدة لا تخطر على بال احد في الغناء العربي، ويرى الموسيقار رياض السنباطي، بان اسمهان هي المطربة العربية الوحيدة التي ارتقت الى مرتبة المنافسة الندية مع ام كلثوم.

صوت اسمهان من حيث المساحة الصوتية يضم من التصنفيات للصوت النسائي فئتي (السوبرانو) ثم الاوكتاف (سبعة درجات ويقفل بالثامنة) وخامة صوت اسمهان أي نبرته، هي لاشك من اجل الاصوات المعروفة شرقاً وغرباً وفيه من الانوثة والدفء الانساني مايجعله متفوقاً بالمعايير العالمية.لقد اتاح مسلسل (أسمهان) ان نتحدث عن الكنز المخبوء في حنجرتها الصادحة، وان نكتشف عناصر حية في حنجرتها في سلم تعبير الفن، عناصر مطابقة في سلم ايقاع الاشكال الحياتية، ان اسمهان بقيت الصوت المحضر والواسع والسليم والغني والثري بمقاماتـــه ودقته وتعبيره، وصوت اسمهان يكشف عن معرفة غزيرة بمســـالك الغناء، والمعرفة قوة، ومن خلال ذلك تشكلت عناصر العظمة في صوت اسمهان الخارق.

> ان اسمهان كانت تجيد اخراج الصوت من الرأس، وهذا هو جوهر الغناء الاوروبي والغربي عموماً، بينما ام كثلوم كانت تقف بغنائها العظيم عند اخراج الصوت من الصدر، وهو جوهر الغناء العربي الكلاسيكي، من هذا التحديد نكتشف اقتران اللون الغنائي بين الحنجرتين الصادحتين

تلك الأسطورة المتجددة

قراءة في كتاب (أسرار أسمهان: المرأة، والحرب، والغناء)

سعد محمد رحيم

تغدو الكتابة عن سيرة امرأة ذات شهرة ومكانة، عاشت في مجتمع وزمن محافظين، مغرية. ويزداد الإغراء حين تكون تلك المرأة مطربة ذات صوت ساحر، تمردت على تقاليد أسرتها ومجتمعها من أجل فنها. ولكن أن تكتنف جوانب من حياتها الأسرار، وأن تشارك بجرأة نادرة في الحدث السياسي، فعلاً لا قولاً، وأن تموت وهي في عز شبابها وعطائها الإبداعي، بطريقة مبهمة ومريبة، فإن شغف الكتابة عنها يبلغ أقصاه.

تلك المرأة المطربة هي أسمهان، التي تنقلت بين الشام ومصر، في النصف الأول من القرن العشرين، وخاضت تجربتها/ معركتها الشخصية الاجتماعية والفنية، ومن ثم السياسية، بطريقة لافتة وصاخبة، متجاوزة مواضعات عصرها وظرفها وجنسها. ومحققة في غضون سنوات قليلة إنجازاً فنياً لا يُضاهى.

وقد ولدت في الماء/ البحر يوم كانت عائلتها هاربة من الأناضول إلى بيروت، حتى كاد والدها يطلق عليها اسم (حربية) لولا معارضة أمها التي اقترحت اسم (أمل). لتموت في الماء أيضاً (في قناة للري) بحادث سيارة، بين القاهرة ورأس البر، تماماً مثلما تنبأ لها عرّاف قبل ذلك بسنوات طويلة!.

شغلت أسمهان ليس الوسط الفني فحسب، وإنما الجمهور كذلك. ومع تورطها في السياسة والحرب، وما أشيع عن تجسسها ومحاولاتها أن تكون عميلة مزدوجة بين الإنكليز والألمان، ومع تمردها على تقاليد قومها وأسرتها ومجتمعها، أضحت ما يشبه الأسطورة في نظر الناس، ولا سيما بعد حادثة موتها الفاجع بحيثياتها الملتبسة. ولاشك في أن حياةً كتلك وموتاً كهذا، لابد من أن يستثيرا المخيلة، ولا بد من أن تُحبك عنهما وحولهما القصص، ولابد من أن يحاصرا بأمواج من الشائعات.

صارت تلك الموهبة المبكرة، المشعّة المحلّقة موضع إطراء واسع، وإعجاب شديد، وحسد أيضاً، وريبة.. دخلت أسمهان ميدان فن الغناء بثقة وتفان وإصرار. وبدت للمهتمين والعارفين بأصول الطرب والمقامات، وقدرة الحنجرة البشرية على الأداء معجزة صغيرة تعد بمنجز هائل مع وجود ملحنين كبار (محمد القصبجي، ورياض السنباطي، ومحمد عبد الوهاب، وشقيقها فريد الأطرش). وبمزاحمة صوت جبار ذي حضور طاغ (أم كلثوم).

يحاول كتاب (أسرار أسمهان: المرأة، والحرب، والغناء) لمؤلفتها الباحثة (شريفة زهور.. ترجمة؛ عارف حديفة، ومن إصدارات دار المدى/ ٢٠٠٦) فك بعض الألغاز التي طبعت حياة أسمهان القصيرة والشاقة والمترعة بالإثارة والغموض. والتذكير بموهبتها وإبداعها الخلاق. ودورها في تحديث الغناء العربي.

لمّا أراد صديقي الناقد السينمائي علاء المفرجي إعارتي هذا الكتاب، لاحظ ترددي في أخذه، فقال؛ هذا كتاب لا يشبه بقية كتب السيرة المكتوبة عن المطربين والمطربات العرب، اقرأه، ولاشك في أنك ستغير رأيك.. واكتشفت بعد قراءة بضع صفحات أن علاء كان على صواب.. هذا كتاب مختلف.

يعطينا الكتاب، على الرغم من صغر حجمه، قدراً وفيراً من المعلومات في التاريخ الحديث وصراعات السياسة، والأنثربولوجيا (الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط) وفن الموسيقى والغناء والسينما. فها هنا نقرأ عن حياة أسمهان، ومن خلالها نقرأ عن حياة جيل ومجتمع. فأسمهان في هذا الكتاب موضوعة في سياق تاريخي، وتتحرك على خلفية أحداث سياسية واجتماعية وفنية.. وقد جاءت الفصول المكتوبة نتيجة بحث واستقصاء جادّين، ونظر موضوعي، وتحليل تاريخي وعلمي دقيق. وفي النهاية لم تتبجح الكاتبة. وهذا ما يُحسب لها .بأنها وصلت إلى اليقين النهائي، ولم تقل أنها فكت الألغاز المشتبكة مع تلك الحياة المائجة (حياة أسمهان). لقد ظلت الكاتبة تتحقق من الاحتمالات.. تطرح الادلة والقرائن، وتعود إلى الأرشيف والسير السابقة، وتستنطق أولئك الذين كانوا قريبين منها.. ترجّح هذا الاحتمال على ذاك، وتقترب من الحقيقة أو تسعى إليها، لكنها لا تدّعي بأنها تعرف ما لا يعرفه حتى الشيطان (إذا ما استعرنا بتصرف مقطعاً من قصيدة لعبد الوهاب البياتي استشهدت به الكاتبة).

تغدو الكتابة عن فنانة مثل أسمهان تورطاً في شبكة روايات، على حد تعبير حنا أردنت.. تقول المؤلفة: «والواضح هو أن أسمهان كانت مغنية عظيمة، إلاّ أن الدعاوى بأنها كانت أميرة، أو جاسوسة، أو خائنة، أو بطلة وطنية، أو امرأة خائبة العاطفة، يمكن بالنسبة إلى مجتمعها العربي أن تتعايش من غير معضلة. وحين كان يصعب التأكد من تفاصيل الماضي، كانت تُخترع أو تزخرف». والكتاب، عموماً، موجّه للقراء الغربيين، ومؤلف باللغة الإنكليزية. وغالباً ما تشير الكاتبة إلى البيئة الشرقية/ الشرق أوسطية ودورها في تحديد مسار حياة أسمهان وقدرها، ومن ثم في صياغة قصتها بتناقضاتها وملابساتها وخفاياها. وفي المقطع الآنف الذكر، المقتبس من الكتاب (كما في مقاطع عديدة أخرى تحفل بها الفصول، حيث تشير غالباً إلى البيئة العربية الأبوية الشرق أوسطية) نلحظ نوعاً من نبرة الاستعلاء والتمييز، وإن لم تكن حادة. وأكاد أقول؛ شيئاً من روح استشراقية، على الرغم من الأصل الشرقي العربي للمؤلفة (شريفة زهور؛ وهي أستاذة مختصة في أبحاث الشؤون الإسلامية والعالم العربي بمعهد الدراسات الإستراتيجية التابعة للجيش الأميركي). غير أنها، والحق يقال، متحررة من عوالق نظريات المؤامرة، وأيضاً مما تسميه هي بتحيزات الرجال في أثناء الكتابة عن النساء، والمعنية هنا (أسمهان). إذ يمكن، بالقراءة المتأنية للكتاب، تلمس طريقتها المنهجية في البحث العلمي، ومن غير اتهامها بالافتقار إلى الموضوعية في معظم الأحيان.

إن الإشارة إلى زخرفة واختراع تفاصيل الماضي تبدو هنا كما لو أنها مثلبة يختص بها الشرقيون وحدهم، ولا يمكن وجودها في الغرب. لكن بدءاً من النظر إلى الشائعات المتناقضة التي تطارد حياة المشاهير في الغرب (حياة وموت مارلين مونرو في سبيل المثال) وحتى تفكيك خطاب الغرب عن الشرق وما يتضمن من اختراع شرق متخيل، يصبح من اليسير دحض براءة الغرب مما يصيب الشرق بهذا الصدد. في مقابل القول أن هذه الظواهر هي إنسانية عامة، بدرجات متفاوتة، ساهم تطور قنوات الاتصال والإعلام، (وعوامل أخرى لا مجال للخوض فيها في هذا المقام)، في تعزيزها وانتشارها في الغرب والشرق معاً، فضلاً عن ضرورة عدم إنكار بعض خصوصية العالم العربي، بهذا الصدد، لأسباب تاريخية معروفة.

هرب أفراد أسرة أسمهان من مدينة (ديمرجي) في الأناضول، حيث كان رب الأسرة (والد اسمهان؛ فهد الأطرش) يشغل وظيفة قائممقام، لما عرفوا أن اليونانيين يزحفون باتجاههم، وكان ذلك في تشرين الثاني ١٩١٧، وكانت زوجة فهد (علياء) حاملاً في شهرها الأخير، فأنجبت في البحر وهم في طريقهم بين أزمير وبيروت، وأطلقت الأم على المولودة اسم (أمل) تفاؤلاً بنجاتهم. (هناك رواية أخرى يذكرها الصحافي محمد التابعي عن ولادتها في العام ١٩١٢). وعائلتها (آل الأطرش) هم فرع متنفذ في العائلة الدرزية. وقد لجأت الأم مع أولادها الثلاثة (فؤاد وفريد وأمل) إلى القاهرة في العام ١٩٢٣ للابتعاد عن خطر الاضطرابات الحاصلة في الشام. وربما كانت أمل في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها حين استمع إليها الملحن محمد القصبجي مندهشاً وهي تغني، وقال؛ «هذا صوت من الفردوس». وأطلق عليها الملحن داود حسني اسم أسمهان (اسم حسناء فارسية ساحرة من زمن غابر)، ورأيه أن الاسم هذا يتصف بالفخامة اللائقة بصوت هذه الطفلة المعجزة. ومنذ ذلك الحين بدأت قصة المغنية التي شغلت لوقت طويل الصحافة والنخبة والرأي العام.

تتبعت المؤلفة مسار وتفاصيل تلك القصة، كما وردت في السير المكتوبة عنها، وما قاله وصرّح به أقرباؤها الأحياء. وما رددتها الصحافة في حينها. ولكن في إطار المشهد الكبير (الاجتماعي والسياسي والفني، الأقليمي والعالمي).. قصة مترعة بالإثارة والتنوع والألوان المتعددة الدرجات، والغموض، والتي تضيئ كما تقول المؤلفة: «رؤية الشرق الأوسط للشأن الجنسي، والسلطة، والرعاية، والغناء، وكيف تطورت هذه الرؤية في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات. لقد عاشت (أسمهان) تجربة الحياة في سياق النهوض القومي والإحباطات. فالتوترات بين الغرب والشرق وبين الطبقات الاجتماعية يتردد صداها في ملحمتها الخاصة. ويتواصل التصادم بين الشرف والشهرة، وبين التحوّل والعرف، ونحن نفكر في المرأة، وموسيقاها، وحرب عالمية».

تزوجت أسمهان من حسن الأطرش، للمرة الأولى، في العام ١٩٣٣. وكانت حكايات زيجاتها إشكالية أخرى في حياتها اختلطت مع قضايا التقاليد الاجتماعية والقبلية والفن والسياسة والهوية والهجرة والسمعة. وأنجبت فتاة (هي الوحيدة: كاميليا) وربما لم تستطع قط العثورعلى حب حياتها. كافحت من أجل فنها، وجرفتها تيارات السياسة وصراعات الأمم والأحزاب. وأحياناً أفرطت في الشرب ولعب القمار وأسرفت في إنفاق المال وغلب الطيش على سلوكها.. مثلت في فيلمين هما؛ (انتصار الشباب) مع شقيقها فريد الأطرش وأنور وجدي، و (غرام وانتقام) مع يوسف وهبي. وفي الفيلم الأول غنت مجموعة من أغنياتها وكلها من ألحان فريد الأطرش. منها (يا بدع الورد، الشمس غابت أنوارها، كان في أمل، يللي هواك شاغل بالي). أما في الفيلم الثاني فغنت ألحاناً أخرى لفريد هي (ليالي الأنس في فيينا، أهوى أهوى، يا ديرتي مالك علينا لوم) فيما غنت من ألحان رياض السنباطي (دمعة على حبيبي، نشيد الأسرة العلوية) ومن ألحان محمد القصبجي غنت (امتى حتعرف امتى، أنللي استاهل).

إن ما جعل منها مغنية عظيمة أداؤها المرهف، والشحنة العالية للعاطفة في صوتها، ونطقها السليم للعربية، ومزجها الأساليب القديمة مع الجديدة.. تقول المؤلفة: «إن تمكن أسمهان من العناصر الكلاسيكية في أعمالها يشتمل على عناصر أداء أسلوبية، واستيعاب نظام المقامات، مع إدماج هذا الاستيعاب في الغناء المرتجل، والاستفادة من المزايا الشعرية للغة العربية بغية خلق دينامية، وتوكيد وتواصل غنائي وعاطفي مع جمهورها».

إن روح أسمهان الجامحة الحرون، وموهبتها النادرة، وصراعها مع محيطها، وولعها بالفن والحياة، وميلها السياسي (الوطني مثلما أزعم)، هذا كله قد رسم مصيرها في النهاية وحدّده. ولقد ماتت بطريقة دراماتيكية ملغزة، كأنها أرادت أن تبقى أسطورة متجددة.. ماتت في حادث سيارة بعد أن نزلت من القطار، في اللحظة الأخيرة، مع صديقتها ماري قلادة التي رافقتها في رحلة الموت كذلك. وهذا يذكّر بحادثة موت المفكر والأديب الفرنسي ألبير كامو مع صديقه (ميشيل غاليمار) حيث قضيا في حادثة سيارة، فيما عُثر على تذكرة قطار في جيب كامو.

أكان موتها غرقاً في قناة للري قضاءً وقدراً؟ ربما.

أم هو أمر دُبِّر بليل كما يُقال؟ حدسي يرجح الاحتمال الثاني. وإذا كان هذا صحيحاً فمن يقف وراء مقتلها؟ أهي الغيرة القاتلة لـ (أم كلثوم) بحسب بعض الشائعات التي راجت يومها؟. شخصياً أستبعد هذا الاحتمال، بل ألغيه، لأن فنانة بعظمة أم كلثوم لا يُعقل أن تقامر بمستقبلها وسمعتها، ناهيك عن حسّها الإنساني الذي لابد من أن يجعلها تأنف عن اقتراف جريمة بشعة كهذه.. أهم الدروز (قومها) من فعلوا ذلك، لأن أميرة منهم انتهكت خطوطهم الحمر التي لا يسمحون بتجاوزها من قبل امرأة/ أميرة ترتبط بهم بصلة الدم؟ محتمل، وأقوله على مضض.. أهو القصر الملكي والإنكليز والسياسة؟ أظن؛ أجل، هذا ما أرجحه. وهذه وجهة نظر شخصية ليس إلاّ.

في كل كتابة نجد بعضاً من نَفَس الكاتب وروحيته ومزاجه وتحيزاته يتغلغل بين تضاعيف الكلمات والجمل. وغالباً ما تجعلنا كتب السيرة، بإيحاءات خفية من المؤلفين، نتعاطف مع الشخصيات التي كُتبت عنها، ونحبها، أو ننفر منها ونبغضها. وفي حالة هذا الكتاب لشريفة زهور، عن أسمهان، فإن القارئ لا يكتفي بالتعاطف والتفهم، وإنما ينجذب إليها (إلى أسمهان) بفعل القوة التي تحلت بها شخصيتها؛ الأنثى الباهرة والشجاعة، والمرأة المنغمسة في الشأن العام، والمطربة ذات الصوت الملائكي.

> **تزوجت أسمهان من حسن الأطرش، للمرة الأولى، في العام ١٩٣٣. وكانت حكايات زيجاتها إشكالية أخرى في حياتها اختلطت مع قضايا التقاليد الاجتماعية والقبلية والفن والسياسة والهوية والهجرة والسمعة. وأنجبت فتاة (هي الوحيدة: كاميليا) وربما لم تستطع قط العثورعلى حب حياتها. كافحت من أجل فنها، وجرفتها تيارات السياسة وصراعات الأمم والأحزاب.**

محمد التابعي وشريفة زهور يكتبان عن أسمهان

أكثر من أسمهان وأكثر من قصة

عناية جابر

اسمهان مع زوجها
الامير حسن الاطرش

في أوائل عام ١٩٤٩ كتب أمير الصحافة آنذاك، المصري محمد التابعي، أول فصل في قصة المطربة أسمهان في مجلة «آخر ساعة»، ثارت إثر نشرها عاصفة من الأقاويل قسمت الرأي العام بين مُهاجم للتابعي مُطالب بعدم المضيّ في كتابة بقية القصة (هدّده ثريّ من اعيان الصعيد بإطلاق الرصاص عليه لأنه نكأ جراح إعجابه وولهه بأسمهان) ومُؤيد قليل، يرجوه المضيّ في كتابة القصة حتى نهايتها.

أكمل التابعي سرد روايته عن أسمهان وكانت تجمعه بها علاقة وطيدة، ومع كل فصل جديد ينشره، كان يحصد مزيدا من الأنصار المتابعين. القصة كاملة بين أيدينا صادرة في طبعة ثانية عن 'دار الشروق' (الطبعة الأولى صدرت سنة ٢٠٠٨) وتحمل عنوان: «أسمهان تروي قصتها» يسرد فيها التابعي قصة علاقتهما الغريبة، وبعض حياة المطربة الراحلة، الفنية والعاطفية والاجتماعية.. وأيضاً السياسية.

كنّا قرأنا لشريفة زهور «أسرار أسمهان» المرأة، الحرب، الغناء، إصدار «دار المدى» منذ سنوات ثلاث، وهو حصيلة جهود الكاتبة المثقفة التي عرفت كيف تكتب عن امراة غامضة.

في كتاب التابعي، يصف الكاتب أول مرّة رأى فيها إيميلي الأطرش، (اسمها كما جاء على شهادة ميلادها)، او «آمال» الأطرش كما سمّاها زوجها في ما بعد، الأمير حسن الأطرش، أو أسمهان كما شاء لها إسماً فنياً الموسيقار داوود حسني، يصفها التابعي حرفياً: إنها «شيء» صغير، نحيل مسكين يبعث الرحمة في الصدور! بقي التابعي يُكرّر ذات الجملة عن أسمهان في كافة مراحل علاقته بها التي قاربها في كتابه، كما لو يتنصّل من أسمهان وحبه لها الذي قرأناه متخفياً بين السطور. على كلّ علاقة أسمهان بالحياة كانت لتخيف أيّ رجل.

علاقة غير يسيرة وتشي بمأزق بعض النساء في أحاسيسهن، وتوقهن الى التفلت الكامل من القيود غير عابئات بمعايير زمانهن الأخلاقية الصارمة.

وعلى الرغم من تعابير التابعي المتوافقة مع كياسة الكتابة عن امراة جمعته بها علاقة ما، فإن كل اهتمامه كان منصبّاً على التنّصل منها عبر نقل ما تداولته الصحافة الصفراء عنها، وعن مزاجها العابث وتورّطها في نشاطات الحلفاء والمحور ما أشغلها منزلة خاصة في الذاكرة العامة.

تأثر التابعي بالنهم المتزامن مع التفلت الذي عاشته المطربة أسمهان، في زمن بدا غير نموذجي للسماح به، لكن أسمهان ورثته كشرط لذاتها، وليس لغنائها وفنها فقـط.

احتاجت أسمهان الى أكثر من «تابعي» وأكثر من رجل، لملء ثغرات فارغة حلت في روحها لأسباب كثيرة، لن نلعب هنا دور الطبيب النفسي في تحليلها.

أسمهان الثانية

في مقارنة بسيطة عقدناها بين كتاب التابعي، وكتاب شريفة زهور عن أسمهان وأسرارها، نرى الى بحث زهور الجّاد عن حقيقة تلك المطربة التي بهرت العالم العربي بصوتها الماسيّ، والى الجهد المضني المبذول في سبيل سبر أغوار الأنثى الجريئة المفرطة في مواكبة العصر. أحد معاني مغامرة أسمهان في مسألتها مع المخابرات، تراه زهور مرتبطاً بوطنيتها، مع عدم نفي الكاتبة الوجه الآخر لتلك العلاقة، وهو طمع أسمهان بالمال لصرفه على ملذاتها، على الرغم من احسانها وبذلها الكثير حين تتوفر لها المادة.

تضيء قصة أسمهان في كتاب زهور، رؤية الشرق الأوسط للشأن الجنسي، والسلطة، والرعاية والعلاقـات والغنـاء، وكيف تطوّرت هذه الرؤية في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، حيث عاشت أسمهان حياتها في سياق النهوض القومي والإحباطات.

كانت أسمهان تأنف الغناء في حفلات عامة، وتؤثرهُ في سهراتها مع الأصحاب فتروح تُطلقهُ من مكامن لا تعرفها هي نفسها، يتردّد صداه في ملحمتها الخاصة التي لم يفهمها أحد، لا أمها ولا اخوتها، ولا محمد التابعي ولا علي بدرخان ولا أحمد سالم، ولا صديقاتها أمينة البارودي أو ماري قلادة. لا أحد ممن عرفته أسمهان، زوجاً أو صديقاً أو حبيباً لامس تراجيديا التصادم في داخلها. كتاب التابعي عنها، كتاب رجل مخذول في ذكورته وتسلّطه، أما زهور فتعتبر أن حياة أسمهان نقطة التقاء مصادر عديدة تضافرت في تلك المرأة، وحكاية يُمكنها أن تُلحّن، فيما تزودنا بملاحظات أخلاقية مهمة ومألوفة، او تؤدّى كأغنية ذات موضوع وتنويعات.

جريدة السفير
اللبنانية

> في مقارنة بسيطة عقدناها بين كتاب التابعي، وكتاب شريفة زهور عن أسمهان وأسرارها، نرى الى بحث زهور الجّاد عن حقيقة تلك المطربة التي بهرت العالم العربي بصوتها الماسيّ، والى الجهد المضني المبذول في سبيل سبر أغوار الأنثى الجريئة المفرطة في مواكبة العصر. أحد معاني مغامرة أسمهان في مسألتها مع المخابرات، تراه زهور مرتبطاً بوطنيتها

طريق الموت

لارا ارتحلت
لارا انتحرت
قال البواب وقالت جارتها ، وانخرطت ببكاء حار
قالت اخرى: "لا يدري احد حتى الشيطان".
(عبد الوهاب البياتي "اولد واحترق بحبي"
يشير كاتبا سيرة اسمهان كلاهما الى "طريق الموت". فكتب التابعي عن هاجس الموت عندها على ذلك الطريق المؤدي الى رأس البر ذاته ، حيث ماتت . ويستخدم لبيب العبارة ليصف رحلتها الجريئة العجيبة التي لا تصدق من جنوبي سوريا الى حدود فلسطين . ويربط التابعي بين توتر اسمهان والافكار الشائعة عن الموت المحتوم ولعله يلمح الى انها حاولت ان تحيا ملء حياتها لانها كانت تعلم في اعماق وعيها ان سنواتها على هذي الارض معدودة . فهي "لم تنجز الحب قط" تلك العاطفة التي لم يعترف بها التابعي الا داخل حدود العلاقات التقليدية . وهذا يفسر مغازلاتها وتصميمها على ان تعيش اللحظة . باحت له باعتقادها انها ستموت في مقتبل الشباب.

كما انها اخبرت ماري قلادة انها ستموت يأسا بعد انفصالها عن احمد ورفض فؤاد وفريد ان تقيم معهما . ومع انها كانت تمتلك شجاعة الرفض فقد كانت مدركة ايضا انها لا تستطيع ان تحافظ على نفسها عاطفيا خارج قواعد اللعبة الموحدة ثم كانت محاولات الانتحار المحزنة ايضا سعيها للتخلص من متاعبها بدلا من القاء المسؤولية على عالمها وقيمه القاسية.

ويخبرنا التابعي انه كان هو نفسه واسمهان وصديقهما جمال جبر ذاهبين بالسيارة من القاهرة الى رأس البر (يمكن الافتراض ان ذلك قد حدث عام ١٩٤٠) يعبر الطريق طبيعة معزولة وعلى طول احد جانبيه قناة للري.

كانت اسمهان تقود السيارة وتتدرب على قصيدة جديدة من شعر ابي العلاء المعري لحنها زكريا احمد. كانت نغماتها الوسطى تصدح:

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شادي

ثم بلغت بيتا آخر:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ
ـب فاين القبور من عهد عاد

وفجأة سقطت الورقة من يدها وتهالكت على المقود تمكن صاحباها من السيطرة على السيارة وكان وجهها شاحبا حين افاقت من اغمائها قالت لهما: احست احساسا غريبا جدا فجأة تناهى اليها صوت المقرئين المميز امام موكب جنازة في السويداء مختلطا بصوت الطاحونة القديمة التي تجتازها المواكب . وحدد التابعي الموضع والحادث وقع في مقطع الطريق ذاته الذي تحطمت عنده سيارتها بعد اربع سنوات.

اعمل فؤاد فكره: "لا . لم اسمع بهذه القصة وقال قريب آخر قد عاش في مصر وقد انحنى الى الامام منفعلا : "لكنك تعلمين ان حادثا آخر قد وقع على ذلك الطريق وقع في الموضع ذاته وكانت ضحيته راقصة ، ما اسمها واربعة اشخاص آخرين ؟ انها مأساة!"

هل كان الطريق، هل كان ايمان اسمهان الذي آمنت به طويلا بالموت الذي لا مناص منه. ام ان موتها كان خطة مدبرة؟

روايات الموت

١. الغرق

كل ما لا يسمى ولا يوصف بالصور كل ما يحذف من السيرة ويخضع للمراقبة في مجموعات الرسائل كل ما اعطي اسما آخر وصعب عليه المرور كل ما يدفن في الذاكرة بانطواء المعنى تحت لغة غير مناسبة او كابة ان هذا لن يصبح شيئا غير منطوق به فقط بل غير قابل للوصف ايضا.(ادريان ريتش: "الاكاذيب ، والاسرار ، والصمت")

ان موت اسمهان المبكر اضاف جانبا مهما الى لغزها العام وسواء اكان فاجعة عادية ام مدبرة فان الحديث الشائع عن الغناء والمغنين قد جعل من موتها موضوعا للجدل شأن حياتها . وما كان قابلا للاثبات من حقائق لم يصبح فقط غير منطوق به كما يقول ريتش بل عصيا على الاسترداد ايضا واقل اهمية من "القصة" المحكية. دعونا ننظر في اول السيناريوهات الاربعة التي روجتها مصادر ومتنوعة.

لقد اشار احد الاجوبة العادية عن اسئلتي حول وفاة اسمهان الى نبوءة عراف للاخوة الثلاثة قبل ان يغادروا الى القاهرة الى الجبل. تنبأ العراف بان فريدا سيعاني مرضا طويلا ثم سوف يستسلم له في آخر الامر وبان فؤادا سوف يفقد حبيبته المخلصة (فتاة عائلته عليها) وبان اسمهان ستموت في الماء وقال لي ناس عديدون: "قالوا ستموت في الماء".

عزمت اسمهان على الذهاب بالقطار في ذلك اليوم وصلت الى المحطة مع ماري قلادة وصعدتا الى القطار ولكنها اكتشفت ان سيارتها قد غادرت المحطة استقرتا في مقصورتهما وبعد لحظات اندفع رجلان الى المقصورة وجلسا . الا ان احدهما فطن للاسئذان فقال : "انتما لا تمانعان طبعا ، يا هانم؟"

ولكن اسمهان كانت تمانع فالرجلان قد يزعجانهما بالاسئلة المضجرة ويحولان بينهما وبين الحديث الحميم نادت قاطع التذاكر فاعلمها انه لا توجد مقصورات خالية لذلك ساعدتها ماري على جمع الحقائب ونزلتا الى المنصة قبل ان ينطلق القطار.

قالت اسمهان: دعينا نعد الى المنزل ! سوف نذهب بالسيارة ان لم يكن السائق قد غادره . عادتا الى منزلها بسيارة اجرة فوجدتا السائق جالسا يشرب الشاي طلبت منه اسمهان ان يجهز السيارة في الحال للذهاب الى رأس البر ولم تلبثا ان غادرتا المنزل . كانت هي وماري راكبتين في المقعد الخلفي للسيارة الالمانية الصنع ذات البابين. استغرقت ساعة على الاقل عودتهما بالسيارة عبر المدينة الى الطريق الماضي الى الشمال والشمال الشرقي تبادلت هي وماري احاديث خفيفة عن خطط الاسبوع التالي ، واحاديث جادة عن الازمة مع احمد وعن التغليف الوشيك للفيلم كانت اسمهان تعرف الطريق ولم تلاحظ أي شيء غير عادي.

يقولون : ان هناك لحظة دائما لحظة طويلة قبل الكارثة قبل ان يرتمي جسمك الى الامام او الى الوراء قبل الالم وتمزيق المعدن للحم حين لا تسمع الا اصواتا سريعة يتعذر تفسيرها ولا يكون هناك توقف كاف للالتماع الاخطاء والحسرات امام عينيك ولا للوداع

لم تسمع اسمهان شيئا من تهليل تلك الجنازة ولم تهجس في قلبها امورا في ذلك اليوم اجل كانت منزعجة مما حدث بينها وبين احمد ولكنها كانت تواقة الى الراحة والاسترخاء في الشاليه . كانت لابسه ثوبا اصفر من حرير وتقرأ رواية فرنسية للكاتبة كوليت وتحث السائق على الاسراع ومع ذلك مرت لحظة مديدة لاحظت هي وماري ان السائق يسوق السيارة في بطء . وما كان هناك وقت للتساؤل ما كان هناك وقت لاستذكار النبوءة القديمة عن الموت في الماء .. النهاية الابعد احتمال من النهايات كلها . ولم يلبث ان انفتح باب السائق وقفز شكله الغائم الى الخارج في حين بقيت السيارة تتحرك مرتجة الى الامام ثم اتجهت الى اليمين نحو القناة . كانت ماري خلف مقعد السائق وحاولت اسمهان ان تقبض على المقود وسرعان ما جاءت الصدمة ثم هوت السيارة في القناة قصبة انفها هي التي آلمتها لقد تمزقت آنذاك.

هل صرختا؟ هل تباطأتا في دفع المقعدين الى الامام وفتح البابين ؟ هل كان باب السائق مفتوحا ؟ اذا لماذا لم تخرجا سابحتين هل احكم السائق اغلاقه قفز من السيارة ؟ هل يمكن الا يكون قد حاول انقاذهما ام انهما اغمي عليهما بعد الصدمة وفي بطء غرقت الصديقتان في الموت كما في الحياة.

٢. الغيرة

كانت تكرهها ما من منافسة لها كانت مثلها موهوبة ومدربة على الغناء وسريعة التعلم وهي لم تبلغ اوج شهرتها كمطربة من غير ان تتعلم هذا الشيء او ذاك ومن غير ان توطد هالة الاحترام حولها.

لم تجد مشقة كبيرة في استعمال حلفائها في استوديو مصر لاستئجار سائق لاسمهان اختارته هي ومنح تعويضا عن الوقت الضائع الظروف المناسبة للحادث تماما لا تحصل كل يوم وفي هذه الفرصة لم يعلم انها سوف تندفع الى المنزل على هذا النحو المفاجئ وتطلب منه قيادة السيارة الى رأس البحر غير انه كان قد انتظر اسابيع عدة وفاتته فرصة اخرى.

كانتا مشغولتين عنه تتبادلان الاحاديث في مؤخرة السيارة حثته اسمهان على الاسراع ولكنه تباطا على نحو ملحوظ عندما اقترب من ذلك الموضع الذي كانت عنده قناة الري اعمق منها في أي موضع آخر عندئذ دفع الباب فانفتح ثم وثب من السيارة الى الخارج بكل قوته فوقع على الارض وتدحرج وآذاه ذلك!

صرخت المرأتان ثم ران صمت بعد ان هوت السيارة الثقيلة في القناة انتظر غير دار ما يفعل لو صعدتا من غير اصابات شديدة حسنا لو حصل هذا لقال : ان استعصاء قد حدث في المقود او في الكوابح كانت استجابته غريزية مثل أي حيوان وصعق لذلك عجز عن انقاذهما ولكنه عرف بعد قليل انهما لم تخرجا من الماء . نادى بصوت ضعيف ثم بصوت عال كان هناك فلاحون يعملون عند ساقية ولم يكونوا من القرب ولا في الموضع المناسب حتى يشاهدوا الحادث اصيب ساقه وظن الاصابة سيئة ولكن

> **كل ما لا يسمى ولا يوصف بالصور كل ما يحذف من السيرة ويخضع للمراقبة في مجموعات الرسائل كل ما اعطي اسما آخر وصعب عليه المرور كل ما يدفن في الذاكرة بانطواء المعنى تحت لغة غير مناسبة او كابة ان هذا لن يصبح شيئا غير منطوق به فقط بل غير قابل للوصف ايضا.**

الصدمة اجلت الآلآم وفي الاعوام التالية انتابته كوابيس مرعبة عن اسمهان – عن عينيها الواسعتين الخضراوين وصرخاتها والفقاقيع البطيئة الصاعدة من حول السيارة.

٣. السياسة

كلا : ام كلثوم بريئة فهي لم تكن معادية لها ولا حاقدة عليها والله اعلم لقد امتحنتها الايام لا يمكن ان تكون قد فعلت ذلك ولكن شخصا ما كان مسؤولا بالفعل عن الحادث وعما ترتب عليه من نتائج فقد تدبروا امر الدفع للسائق وصرفه من العمل وكان عليهم ان يتأكدوا من عدم انعاشها لذلك استغرق نقلها الى المشفى وقتا.

قال احد الضباط : انها كانت حية عندما ادخلت الى المشفى واجريت لها عملية اسعاف ولكن اوامر جاءت بالا تجرى لها عملية ناجحة واشيع ان تلك الاوامر صدرت عن انور السادات نفسه – عضو العصبة الحديدية .

ماذا تقولون ومن الذي دفع للمحقق ؟ ولماذا اغلق تقرير البوليس؟

وقد تسألون: ما الذي كان يدعوهم الى الاهتمام بها؟ تذكروا فقط انها لم تزل آنذاك مرتبطة بالبريطانيين ليس من خلال مغامراتها في المشرق بل من خلال مغامراتها السابقة مع حسنين باشا الذي كان ينبغي استبعاده ايضا بكل حذر طبعا والقول: ان ما جرى كان حادث سيارة . صحيح انها لم تكن على صلة طيبة مع حسنين في ذلك الوقت ولكن البريطانيين كان لهم تاثير كبير واتضح ذلك في حادثة عابدين عام ١٩٤٢ عندما طوقت المصفحات القصر فاقنع حسنين الملك بالتوقيع على وثيقة لامبسون تجنبا للعزل.

واولئك الذين لم يزالوا موالين للمحور لم يعرفوا كم كانت تعرف والى من يمكن ان تفضي به . ربما تكون قد كشفت كل شيء عندما القي القبض عليها في القطار وربما لم تكن قد قالت شيئا آنذاك.

كان مناسبا ان يفترض كثيرون ان البريطانيين عندهم اسباب اكثر من غيرهم للتخلص منها ومن لسانها الطليق اسباب اكثر مما عندنا او عند زوجها الغيور الذي ربما تلاعب بكوابح السيارة او عن اقربائها الدروز الغاضبين الذين لم يغفروا لها عودتها الى التمثيل؟

قال عمها : " كانت هناك ثلاثة اسرار ففي غمرة الصراع بين القوى الكبرى اعتبرتها كل واحدة من هذه القوى عدوة لها وكان لهن مصلحة في القضاء عليها والعائلة كانت غاضبة ايضا كنا نعيش في مرحلة محافظة مسلسل الاحداث مع احمد سالم لم يكن مقبولا بالجملة حاولي ان تفهميني لم تكن مجرد امراة درزية بل امرأة لها خصوصيتها نحن لم نعتبرها مجرد بطلة فيلمين بل اميرة حقا.

ولا بد من خصوصيتها ايضا ان يحسب حساب اعدائها من الاسرة المالكة (المصرية)...

وبقدر ما تعلق الامر بنا لم تمت كما ماتت لكان ينبغي التخلص منها في اقرب وقت .."

٤. الشرف

علمت انها آتية لا محالة – نهاية حياتها المثيرة التي لا نهاية لها وتمنيت ان تحول بينها وبين انجاز ذلك الفيلم الثاني ، وصمة العار تلك ذروة جميع مغامراتها الطائشة ونوبات غضبها ودموعها ونبالتها المضيعة منذ وقت طويل وحتى لو عرض الفيلم كنت اعرف ان السلطات سترتبك في متابعة القضية فكثيرون عندهم دافع ما سيصعب البت فيه هو المناسبة والدليل فقط.

وكما اخبرت ماري عندما جاءت مرتين تطلب مني ان ادع اسمهان تعود الى الاسرة وحملت معها وعود اسمهان الكاذبة : "لا جدوى من الطلب

> **عندما سمعنا النبأ كنا نقطع الكعكة في عيد ميلاد كاميليا في ١٤ تموز ، ١٩٤٤ كان حسن موجودا وكذلك فريد ونجاة علي والاسرة وصل احد أقربائنا وهو هايل وسرعان ما سألناه : "لماذا تحتفلون ؟ اما سنعتم خبر وفاة اسمهان في الراديو؟" ولكننا لن نشغل الراديو ومضى حسن الى غرفته واخذ يبكي بالفعل وبعد اليوم الثاني ذهب الى مصر وذهبت انا ايضا لحضور الجنازة كان هناك كثير من المشيعين ربما بلغ عددهم ثلاثمائة او أربعمائة**

لقد سمعت كل هذه التوسلات والقرارات من قبل" كنت عازما على ارغام اسمهان على الخروج من مصر وابعادها الى حيث لا تستطيع ايذاء سمعتنا .. وايذاء مسيرة فريد الصاعدة . كنت فظا واخبرت ماري ان المخرج الوحيد امام اسمهان هو الموت او مغادرة مصر ولما احتجت اهنتها.

كنت سادفع له من اجل حسن الذي اسيئ اليه ومن اجل نفسي ومن اجل عائلتي ومن اجل الشرف وفيما بعد كنت اطل على النهر وافكر في سخف افتراضي انني سوف انساها واضطرت الى اعادة كتابة سيرتها النبيلة من اجلها بعد كل هذه الاكاذيب ولم اكف عن حبها قط فانا المحها في كل صورة وفي كل نغمة.

تعقيب

قال منير:

عندما سمعنا النبأ كنا نقطع الكعكة في عيد ميلاد كاميليا في ١٤ تموز ، ١٩٤٤ كان حسن موجودا وكذلك فريد ونجاة علي والاسرة وصل احد أقربائنا وهو هايل وسرعان ما سألناه : "لماذا تحتفلون ؟ اما سمعتم خبر وفاة اسمهان في الراديو؟" ولكننا لن نشغل الراديو ومضى حسن الى غرفته واخذ يبكي بالفعل وبعد اليوم الثاني ذهب الى مصر وذهبت انا ايضا لحضور الجنازة كان هناك كثير من المشيعين ربما بلغ عددهم ثلاثمائة او أربعمائة.

دفنت في مصر في قبر هيأته قبل سفرها الى سوريا ".. بكيت عليها ، صدقني كانت لا تزال شابة وكنت احبها ايضا".

كان صوت المقرئين امام الجنازة في السويداء فريدا والموكب يشق طريقه عبر طرقات القرى والمدن الصغيرة وكانت اسمهان قد سمعت صوت المقرئين امام جنازتها ولكن ذلك لم يكن ليجري في مصر النائية عن نسيم الجبل العليل . ان عبير الياسمين في الليل الدافئ ونداءات الشارع الخاصة تغمر ارض المقبرة ربما تكون فلذة من روحها قد تلبثت في جميع النساء القلقات اللاتي يقتفين أثرها على المسرح وعلى الشاشة الفضية.

عن كتاب اسرار اسمهان
الصادر عن دار المدى

القصيدة الضائعة من تراث أسمهان

عبد الوهاب الشيخلي مجلة الاذاعة والتلفزيون ١٩٨٠

قام الشيخ زكريا أحمد بتلحين غير مُجْد في ملتي واعتقادي سنة ١٩٤٠ وغنتها أسمهان في نفس تلك السنة، كما غنت كذلك من الحان زكريا أحمد أغنيتين هما هديتك قلبي و عذابي في هواك أرضاه وقد استطعت العثور علي تسجيل لأغنية هديتك قلبي خلال احدى زياراتي للعاصمة السورية دمشق، حيث وجدتها عند احد المحلات المتخصصة في بيع أشرطة الغناء النادرة، وقد استطعت – فيما بعد– أن اعثر على تسجيل جيد لقصيدة غير مجد في ملتي واعتقادي بصوت المطربة الكبيرة سعاد محمد التي كانت قد اعادت غناء هذه القصيدة بعد ان غنتها اسمهان، ولكن السؤال المُلح: الى متى ستظل هذه القصيدة– بصوت أسمهان– ضائعة أو تائهة؟!

إلى جانب هذه القصيدة الضائعة، فإن الباحث الجاد فكتور سحاب يذكر في كتابه السبعة الكبار في الموسيقى العربية ان أسمهان قد غنت قصيدة لابن زيدون– الشاعر الأندلسي العاشق– وهي بعنوان أقرطبة الغراء.. ولم تفلح كذلك محاولاتي المستمرة في العثور على هذه القصيدة، وهي من تلحين الموسيقار العبقري رياض السنباطي، وهذا يعني أن هناك أعمالا غنائية ضائعة حتى الآن من تراث اسمهان، رغم كل هذا الاهتمام الذي نراه الآن بها بعد عرض المسلسل الشهير عن حياتها خلال شهر رمضان المبارك.

نلتقي هنا اليوم مع النص الذي غنته أسمهان لقصيدة ليت للبراق عينا وهي للشاعرة ليلي العفيفة التي رحلت عن عالمنا سنة ٤٨٢ ميلادية، ومن الطريف هنا أن أشير الى ان الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة قد سمت ابنها الوحيد البرَّاق رغم صعوبة هذا الاسم وندرته، وذلك تعبيرا عن إعجابها بأداء أسمهان لهذه القصيدة التي لحنها محمد القصبجي سنة ١٩٣٨، كما نلتقي كذلك هنا مع نص قصيدة اسقنيها وهي من أرق قصائد الأخطل الصغير.

ليت للبراق عينا
قصيدة الشاعرة ليلي العفيفة

ليت للبراق عينا فترى
ما ألاقي من بلاء وعَنَا
عُذبت اختكمُ يا ويلكم
بعذاب الفكر صبحاً ومسَا
غللوني.. قيدوني.. ضربوا
جسميَ الناحل مني بالعصَا
قيدوني.. غللوني.. وافعلوا
كل ما شئتم جميعاً من بَلاَ
فأنا كارهة بغيكمُ
ويقيني الموتُ شيء يُرتجى
املأ الكأس ابتساما
وغراما
فلقد نام الندامى
والخزامى
زحم الصبحُ الظلاما
فإلاما
قم ننهنه شفتينا
ونذوّبْ مهجتينا
رضي الحب علينا
يا حبيبي... بأبي أنت
وأمي
اسقنيها..
لا لتجلو الهم عني
أنت همي
إن تكنْ أنت أَنا
وجعلنا الزمنَا
قطرة في كأسنا
ياحبيبي..
اسقنيها لا لتجلو
الهم عني
أنت همِّي

اسقنيها
قصيدة الأخطل الصغير

اسقنيها بأبي أنت وأمي
لا لتجلو الهم عني.. أنتَ هَميَّ

اسمهان وشقيقها فريد الاطرش

التحرير
على حسين

التصميم
مصطفى محمد

الاشراف اللغوي
محمد السعدي